الجامع الأزهر

كلية أصول الدين

مذكرة علوم القرآن

لطلبة السنة الأولى (قسم إجازة الدعوة والإرشاد)

بقلم

فضيلة الشيخ احمد أحمد على

الأستاذ بكلية أصول الدين

(الطبعة الثالثة)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة الأزهر

١٩٥٥ — ١٣٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد : فقد كان المنهاج المقرر فى علوم القرآن لطلبة السنة الأولى بقسم الدعوة والارشاد يدرس فى كتاب منهج الفرقان لمؤلفه المرحوم فضيلة الأستاذ الشيخ محمد على سلامة لأنه كان مدرس المادة — ولما انتقل إلى رحمة الله تعالى بقى العمل على دراسة كتابه إلى أن نفذت نسخه . وكان لى شرف تدريس هذا المنهاج بعد وفاته . ولما ابتدأت السنة الدراسية هذا العام حاولت إعادة طبع الكتاب ، فرأيت من الطلبة رغبة ملحة فى أن أضع لهم مذكرة فى المنهاج من عملى فاستخرت الله العظيم وبدأت بوضع المذكرة فى غرة أيام السنة الهجرية الجديدة عام ألف وثلاثمائة وثمانية وستين ، تيمنا بالعام الهجرى الجديد .

وأقرر أنى أستمد معلوماتى فى هذه المذكرة من المذكرات السابقة وليس لى فيها إلا التنسيق والتهذيب وبعض معلومات من الله بها على أثناء التدريس فى هذا القسم .

وأبرأ إلى الله من حولى وقوتى إلى حوله وقوته وهو حسبى ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

أحمد أحمد على
الأستاذ بكلية أصول الدين

مقدمة الطبعة الثانية

لله الحمد والمنية : فقد نفدت نسخ الطبعة الأولى من هـذه المذكرة بعد أن انتشرت فى محيط الكلية وخارجه : وها هى ذى الطبعة الثانية وقد أدخلت عليها بعض التغيير والتبديل والزيادة والنقص (وهو ما لا بد منه بعد القراءة والدرس) رجاء أن أقارب الكمال وسبحان من تفرد به .

وكان من يمن الطالع أن يصادف بدأ أعاده الطبع شهر ربيع الأول من سنة ألف وثلاثمائة واثنتين وسبعين من هجرة خاتم المرسلين وهو شهر ميلاده عليه الصلاة والسلام — أسأل الله التوفيق والسداد وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم إنه نعم الولى ونعم النصير وهو حسبى ونعم الوكيل .

أحمد على

مقدمة الطبعة الثالثة

لله الحمد والمنة : فقد نفدت نسخ الطبعة الثانية من هذه المذكرة بعد أن انتشرت فى محيط الطلبة وخارجه خصوصا فى أقطار المملكة العربية السعودية وقطر السودان ، وكان من يمن الطالع أن يصادف بدأ إعادة طبعها للمرة الثالثة شهر ربيع الأول من سنة ألف وثلاثمائة وخمسة وسبعين من هجرة خاتم المرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، أسأل الله التوفيق والسداد وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم أنه نعم المولى ونعم النصير : وهو حسبى ونعم الوكيل .

أحمد على

منهاج السنة الاولى

(قسم إجازة الدعوة)

(ثلاثة دروس فى الأسبوع)

مقدمة :

معنى علوم القرآن وتاريخ ظهور هذا الإصطلاح .

نزول القرآن ، كيفية النزول وحكمتها ، أول ما نزل وآخر ما نزل ، أسباب النزول ، النزول على سبعة أحرف ، المكى والمدنى ، وجوه الفرق بينهما .

جمع القرآن ، تاريخه تفصيلا ، الرد على ما يثار حول القرآن من شبه .

ترتيب القرآن ، كتابة القرآن . رسم المصحف . المصاحف تفصيلا . دراسة نماذج مما روى فى الجمع والترتيب والكتابة مع بيان ما فيه من ضعف أو صحة ورد الشبه الواردة على الصحيح منه .

القراءات ورد الشبه الواردة فى هذا المقام .

التفسير : التفسير المأثور . المفسرون من الصحابة . تفسير ابن عباس : الرواية عنه واختلاف الآراء فيها : الرواية عن غيره من الصحابة .

المفسرون من التابعين ، طبقاتهم ، نقد المروى عنهم ، وضع وضعف الرواية فى التفسير بالمأثور وأسباب ذلك .

تدوين التفسير بالمأثور ، وخصائص الكتب المؤلفة فى ذلك ، التفسير بالرأى الجائز منه ، وغير الجائز ، التعارض بين التفسير بالرأى والتفسير المأثور وما يتبع فى الترجيح بينهما ، أهم كتب التفسير بالرأى ومزايا كل كتاب .

تفسير الفرق المختلفه كالتفسير الاشارى وتفاسير أهل الكلام : التعريف بأشهر الكتب فى ذلك .

مزج العلوم الأدبية والكونيه وغيرها بالتفسير وسبب ذلك وأثره .

تمهيـــــد

التعريف بالقرآن الكريم :

القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذى أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم منجما على حسب الوقائع والمناسبات . فى مدى ثلاث وعشرين سنة تقريباً ليكون دستور المسلمين ومعجزة الرسول المبعوث رحمة للعالمين :فهو مرجع العقائد والعبادات والمعاملات وكل أمور الدين .

وقد انتظم هـذا القانون السماوى من العقائد الصحيحة والآداب الحميدة والأخلاق الفاضلة : والأعمال الصالحة والمعاملات النافعة ما هو كفيل بسعادة البشر فى الدارين وهو الدواء الناجع لعلل البشر النفسية والبلسم الشافى لأمراضهم الخلقية : والعلاج النافع لمشاكلهم الاجتماعية لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد وهو الذى فك العقول من أسارها : وحرر الأفكار من أغلالها وهو الحق الصادع : والنور الساطع : ولسان الصدق : ودليل الخير : إن أوجز فكافيا : وإن بين فشافيا : وإن كرر فذكراً وهو أخيراً وليس آخراً كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم : وخبر ما بعدكم : وحكم ما بينكم : وهو الفصل ليس بالهزل : وهو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم : وهو الصراط المستقيم : وهو الذى لا تزيغ به الأهواء : ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء : ولا يخلق على كثرة الرد : ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى

إلى الرشد فآمنا به : (١) من قال به صدق : ومن عمل به أجر : ومن حكم به عدل : ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

عناية المسلمين الأولين بالقرآن :

ولما كان القرآن الكريم بهذه المثابة عنى به المسلمون الأولون أى عناية ، فمنهم من بحث فيه من ناحية نزوله أو كيفية النزول وأسبابه أو أول ما نزل منه وآخر ما نزل منه ؛ ومنهم من عنى بلفظه من جهة الاداء أو من ناحية الاسلوب أو من نواح أخر ؛ كما أن منهم من عنى بمعناه من ناحية تفسيره ... الخ . أو ببيان بلاغته أو بفصصه أو بغريبه أو بجدله الخ الخ . مما كان مجالا واسعا لحفز همم المؤلفين الذين وضعوا فى نواحيه المختلفة المتشعبة مؤلفاً خاصاً بمبحث أو عاما يشمل عدة مباحث . وكل يبذل قصارى جهده على قدر استطاعته واستعداده ؛ ولا تزال الروح الدينية إلى الآن تبعث فى نفوس أهل العلم حب تدوين مباحث القرآن الكريم وفى كل يوم يطلع علينا فى سماء التأليف ؛ بحث فى القرآن طريف يبتغى به واضعه وجه الله تعالى ثقة منه بأن خدمة القرآن فى أى ناحية من نواحيه ، من أجل القرب إلى الله منزله وموحيه ؛ على أنه مهما بذل المجدون من جهد فى هذا السبيل فإنهم لن يصلوا إلى عشر معشار ما يشتمل عليه القرآن من أسرار ؛ كيف وهو الذى لا تنقضى عجائبه ولا تفنى أسراره .

* * *

وهذا أوان الشروع فى المقصود فنستعين بالله وهو المسهل والميسر والمعين .

---

(١) هى مقالة الجن التى حكاها الله عنهم فى سورة الجن ، ولهم مقالة أخرى حكاها الله عنهم فى سورة الاحقاف ، وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » .

(١) الموضوع الاول من المنهاج

مقدمة : معنى علوم القرآن وتاريخ ظهور هذا الاصطلاح :

مباحثه

(ا) معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافى .

(ب) معنى علوم القرآن بالمعنى العلمى (الفن المدون)

(ج) تاريخ التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الأول .

(د) تاريخ التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الثانى .

(ا) معنى علوم القرآن بالمعنى الاضافى

العلوم جمع علم وهو فى الأصل الفهم والإدراك ، وقد نقل هذا اللفظ من المعنى اللغوى إلى معان إصطلاحية تختلف باختلاف الاصطلاحات المتنوعة : فللحكماء اصطلاح[١] وللمتكلمين آخر[٢] وللشرعيين ثالث[٣] ولعلماء التدوين رابع هو الذى يعنينا فى هذا المقام ، فهو عندهم عبارة عن المسائل المختلفة المضبوطة بجهة واحدة أو إدراك تلك المسائل أو ملكات استحضارها .

---

(١) عرفه الحكماء بأنه صورة الشيء الحاصلة فى العقل أو حصول الصورة فى العقل .

(٢) عرفه المتكلمون بأنه صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به : أو صفة توجب لمحلها تمييزاً لا يحتمل النقيض .

(٣) عرفه الشرعيون بأنه معرفة الله تعالى وآياته وأفعاله فى عباده وخلقه وهو المعنى بقوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وأما لفظ القرآن فهو فى الأصل مصدر قرأ مساو للقراءة قال تعالى « إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » . ثم استعمل فى معنى اصطلاحى شرعى هو المقروء بخصوص اللفظ المنزل على سيدنا محمد ﷺ من باب إطلاق المصدر على اسم مفعوله وصار علم شخص منقولا .

ومدلوله تلك الآيات المنزلة على سيدنا محمد ﷺ الممتازة بخصائصها العليا ولا يقدح فى تشخص مدلوله اختلاف الملفظين به ولا تعدد القارئين له .

ويطلق القرآن على كله وعلى أبعاضه فيقال لمن قرأ آية من القرآن أنه قرأ قرآنا كما يقال ذلك لمن قرأه كله .

ويعرف حينئذ بأنه اللفظ المنزل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا تواترا المتعبد بتلاوته [1] .

هذا ولما كان القرآن الكريم مخالفا لكلام العرب فى أسلوبه وكان بلاغته كانت أسماؤه مخالفة لأسماء كلام العرب : فقد سموا كتابهم ديوانا وأجزاءه قصائد وأجزاء القصائد أبياتا وآخر الأبيات قافية — وسمى كتاب الله قرآنا وأجزاؤه سورا وأجزاء السور آيات وآخر الآيات فاصلة .

وقد جعل الله لكلامه المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة أشهرها القرآن والفرقان والكتاب والذكر والتنزيل وأوصافا كثيرة كذلك منها مبين وكريم ونور وهدى ورحمة وشفاء وموعظة ومبارك وبشرى وبشير ونذير وعزيز الخ الخ .

---

(١) هذا التعريف هو المناسب لاصطلاح الأصوليين والفقهاء وأهل العربية وأما علماء الكلام فإنهم يبحثون فيه من حيث إثبات النبوة للرسول أو من حيث أنه كلام الله وصفة من صفاته .

فعرفوه من الجهة الأولى بمثل ما عرفه أهل العربية والأصوليين والفقهاء وعرفوه من الجهة الثانية بأنه الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى المتعلقة بالكلمات النفسية الأزلية التى هى الألفاظ الحكمية المجردة .

وقد روعى (١) فى تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن كما روعى فى تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه .

وفى تسميته بهذين الإسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد فى الصدور وفى السطور أن تضل إحداهما فتذكر إحدهما الأخرى : فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا تواترا على هيئته التى وضع عليها أول مرة : ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالاسناد الصحيح المتواتر أيضاً وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله فى نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها ﷺ بقى القرآن محفوظا فى حرز حريز انجازا لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند حيث لم يتكفل الله بحفظها بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى : (والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) أى بما طلب إليهم حفظه .

والسر فى هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد — وإن هذا القرآن جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها فكان جامعاً لما جاء فيها من الحقائق الثابتة زائداً عليها بما شاء الله زيادته وكان سادا مسدها ولم يكن شيء منها ليسد مسده فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً يسر أسبابه وهو الحكيم العليم) .

أما بعد فنعود إلى المركب الإضافى فنقول معنى علوم القرآن على هذا أنواع المباحث المتصلة بالكتاب الحكيم وإنما جمعت لأنه لم يقصد إلى نوع واحد من هذه المباحث وإنما أريد شمول كل علم يستند فى بحثه إلى

---

(١) هذا الجزء من كتاب النبأ العظيم لفضيلة الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز ببعض تصرف .

القرآن الكريم وذلك علوم متنوعة علم التفسير - علم القراءات - علم الرسم العثماني - علم الناسخ والمنسوخ - علم مجاز القرآن - علم إعراب القرآن - علم أسباب النزول - علم جدل القرآن - علم ترجمة القرآن - علم غريب القرآن الخ . مما أوصله بعضهم إجمالا إلى خمسين نوعاً أوصله الإمام السيوطي إلى ثمانين نوعا إجمالا أيضاً تربى على الثلاثمائة تفصيلا .

(ب) معنى علوم القرآن بمعنى الفن المدون :

هذا المركب الإضافي الشامل لطائفة كثيرة من مباحث القرآن الكريم شمول الجمع لأفراده قد نقل من هـــذا المعنى وجعل اسماً لفن مدون استحدث بعد أن لم يكن في القرن الخامس الهجري كما ستعرف ذلك قريباً وذلك المعنى الجديد هو مجموع المباحث المتنوعة المتعلقة بالقرآن ويعرف حينئذ بأنه العلم الذي يبحث عن كل ما يتعلق بالقرآن الكريم بحسب الطاقة البشرية - وقد انسلخ عن كلمة (علوم القرآن) بعد هذا الاستعمال صفة الجمعية والإضافة وأصبح شموله لكل مبحث شمول الكل لأجزائه .

(ج) تاريخ التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافي :

أنزل الله القرآن الكريم على رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ليكون للناس بشيراً ونذيراً وهاديا فكان صلى الله عليه وسلم يتلقى القرآن من الله جلت قدرته وهو الذي ضمن له أن يجمعه في صدره ويبين له معانيه كما قال تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه) .

وكان صلى الله عليه وسلم يبلغه للصحابة ويتولى شرحه لهم بسنته الجامعة وقد كانوا عربا خلصا فاستطاعوا أن يحفظوا القرآن ويفهموه على وجهه الصحيح ويدركوا بفطنتهم من علومه أكثر مما عرفه العلماء منها إلى الآن فلم تكن لهم حاجة إلى تدوينها خصوصاً وأن عصرهم كان عصر أمية وأدوات الكتابة غير

ميسورة لهم فيه . وهم مع هذا منهيون عن كتابة غير القرآن مخافة أن يلتبس به القرآن فقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه وحدثوا عنى فلا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .

فلهذه الأسباب مجتمعة لم تكتب علوم القرآن كما لم تكتب علوم الحديث بل ولا الحديث نفسه فى صدر الإسلام — واستمر الأمر على ذلك مدة خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فكان الصحابة معنيين كل العناية بالقرآن كتابة ورواية ويبشر علومه بوساطة الرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين .

ولما جاء عثمان رضى الله عنه وقد اتسعت رقعة الإسلام واختلط المسلمون العرب بغيرهم من الاعاجم وخيف أن يختلف المسلمون فى القرآن أمر رضى الله عنه ان يجمع القرآن فى مصحف امام فكان هذا العمل فاتحة عهد التدوين لعلوم القرآن حيث كان أساساً لعلم الرسم العثمانى — وفى عهد على كرم الله وجهه وضعت بعض قواعد اللغة العربية لحماية لغة القرآن فكان هذا مبدأ وضع علم النحو وتبعه علم إعراب القرآن — وفى عهد بنى أمية استمر الأمر على نشر القرآن بوساطة الرواية لعدم توافر الدواعى وفى عهد العباسيين فى القرن الثانى توافرت الدواعى على تدوين علوم القرآن وانتفت الموانع التى كانت موجودة قبل ذلك فابتدأ عصر التدوين لعلوم القرآن واتجهت الهمم بادىء ذى بدء إلى علم تفسير القرآن لأهميته فألف فيه الكثيرون نذكر منهم شعبة ابن الحجاج وسفيان بن عيينه ووكيع بن الجراح — ثم تلاهم ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ثم تتالت المؤلفات فى التفسير على اختلافها فمنها المطول ومنها الموجز ومنها المتوسط — ثم منها ما تفسيره بالمعقول ومنها ما تفسيره بالمنقول — ثم منها ما هو تفسير للقرآن كله ومنها ما هو تفسير لسورة أو أو أية أو جملة آيات .

أما علوم القرآن الأخرى فأول العهد بالتأليف لها كان فى القرن الثالث حيث وضع ابن المدينى شيخ البخارى مؤلفه فى أسباب النزول وابن سلام مؤلفه فى الناسخ والمنسوخ وفى القرن الرابع ألف السجستانى فى غريب

القرآن - وفى القرن الخامس ألف على بن سعيد الحوفى فى إعراب القرآن وسيأتى أنه أول من ألف فى علوم القرآن مجتمعة - وفى القرن السادس ألف أبو القاسم السهيلى فى مبهمات القرآن وفى القرن السابع ألف ابن عبد السلام فى مجاز القرآن - وعلم الدين السخاوى فى علم القراءات -

ثم تتالت المؤلفات وانتشرت فى أنواع علوم القرآن المختلفة مثل أقسام القرآن وأمثال القرآن وحجج القرآن ولا تزال المؤلفات إلى اليوم تتجدد ويتبارى أصحابها فى هذا الميدان خدمة لأعظم كتاب جاء به أفضل رسول بعث لخير أمة أخرجت الناس .

وقد كان منهاج التدوين لهذه العلوم متفرقة يدور حول استقصاء أجزاء القرآن التى اشتركت فى الناحية المدون فيها فمن يكتب فى التفسير مثلا يستوعب القرآن أو السورة التى نصب نفسه لتفسيرها ومن يكتب فى الناسخ والمنسوخ يستقصى آيات النسخ وهكذا فى أسباب النزول وفى المجاز وفى الأقسام الخ .

وكان من آثار النهضة المباركة الحديثة ظهور مؤلفات فى موضوعات جديدة لم يؤلف فيها قديماً مثل ترجمة القرآن والشبه الواردة على مكيه ومدنيه والشبه الواردة على جمعه وكتابته وهكذا من كل طريف فى التأليف يتجدد بتجدد أسرار القرآن وقد نهض فى القرن الرابع عشر أفذاذ العلماء ووضعوا للموضوعات الجديدة وغيرها مؤلفات محدثة طريفة نذكر منهم على سبيل المثال فضيلة المرحوم شيخ الجامع الأزهر سابقاً الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى وفضيلة الشيخ مصطفى صبرى بك شيخ إسلام تركيا السابق وفضيلة المرحوم الشيخ محمد سليمان عتارة نائب المحكمة العليا الشرعية سابقاً وفضيلة المرحوم الشيخ مصطفى الشاطر القاضى بالمحاكم الشرعية فقد كتب جميعهم فى ترجمة القرآن ومنهم فضيلة المرحوم الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقاً وفضيلة المرحوم الأستاذ الكبير الشيخ محمد حسنين العدوى مدير الأزهر سابقاً وفضيلة المرحوم الشيخ محمد خلف الحسينى شيخ المقارىء فقد كتب جميعهم فى نزول القرآن على سبعة أحرف - ومنهم فضيلة الموحوم الشيخ محمد عبد العزيز الخولى

وفضيلة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش والمرحوم السيد مصطفى صادق الرافعى وفضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولى وفضيلة المرحوم العالم المحدث الحجة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى .

جزى الله الجميع خيراً وأثابهم على ما قدموا للقرآن من مجهود مشكور يحسب لهم فى صحائفهم يوم يقوم الناس لرب العالمين - ونسأل الله أن يوفقنا كما وفقهم وأن يتقبل منا ومنهم وهو متولى السرائر .

(ه) تاريخ التدين لعلوم القرآن بالمعنى العلمى :

أما التأليف فى علوم القرآن كفن مدون حيث تكون مجتمعة فلم يكن ذلك إلا فى بداية القرن الخامس الهجرى حيث وضع على بن سعيد الحوفى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ مؤلفه المسمى بالبرهان وهو مفقود لا يوجد منه إلا أجزاء متناثرة فى دار الكتب المصرية . ثم جاء ابن الجوزى فى القرن السادس وألف كتابين سمى الأول فنون الأفنان فى علوم القرآن وسمى الثانى المجتبى وكلاهما مخطوط موجود بدار الكتب المصرية .

وفى القرن السابع ألف علم الدين السخاوى كتاباً أسماه جمال القراء - وألف أبو شامة كتابا أسماه المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز — وكل هذه الكتب عبارة عن طائفة يسيرة من مباحث القرآن لا تغى بالغاية .

وفى القرن الثامن جاء نور الدين الزركشى وألف كتاب البرهان فى علوم القرآن وهو أوفى من سوابقه ويعتبر مرجعا لجميع المؤلفات بعده .

وفى القرن التاسع أراد الله لهذا الفن الانتشار بشكل أوسع والوصول به إلى غاية أسمى وأشمل فجاء جلال الدين البلقينى شيخ الإمام السيوطى فألف كتابه المسمى مواقع العلوم من مواقع النجوم — وقد ضمنه ستة أبواب تشمل خمسين نوعاً من مباحث القرآن كما جاء محمد بن سليمان الكافيجى ووضع كتاباً آخر أسماه علوم القرآن فكان هذان الكتابان معيناً صافياً ومنهلا عذباً للعلامة السيوطى الذى وضع فى هذا القرن كتابه الأول المسمى التحبير

فى علوم التفسير وقد ضمنه ما جاء فى الكتب السابقة مع زيادة أمثالها وجمل مباحثه مائة نوع واثنين — ثم اتجهت همته العالية إلى وضع مؤلف أوسع وأشمل فكان هذا المؤلف هو كتابه الثانى (الإتقان فى علوم القرآن) وهو حجة الباحثين وعمدة الطالبين وأمل الكاتبين ذكر فيه رحمه الله ثمانين نوعاً على سبيل الإجمال تربى فى التفصيل على الثلاثماية نوع جمع فى كل نوع من هذه الأنواع كل ما قيل فيه سواء ما يرتضيه هو وما لا يرتضيه — وترك الأقوال هكذا بدون تعليق أو ترجيح فكان ينقصه المراجعة والتهذيب ولعل عذره أنه أراد أن يجمع فى كل نوع أكبر كمية ممكنة من المعلومات وترك التهذيب لمن يجىء بعده .

وللأسف الشديد لم يعن أحد من بعده بمراجعة كتابه وتنسيقه وتنقيته مما قد يكون مثار شبه ما كان أغنى المسلمين (فى هذا العصر المتلىء بالشبهات والإلحاد) عنها .

وأنى أرجو أن يوفق الله بعض أهل العلم للقيام بهذا الواجب الدينى الذى يعتبر ضرورة ملحة خصوصاً فى هذا العصر الذى ليس للمسلمين فيه من الوقاية والحصانة ما كان لهم فى عصر تأليف كتاب الإتقان .

ولو كنت من فرسان هذا الميدان لقضيت باقى حياتى فى تهذيب السيوطى وأعتقد أنه خير عمل أتقرب به إلى الله تعالى ولكن همتى قاصرة (ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه) .

وقد توفى رحمه الله سنة ٩١١ هـ فكانت وفاته خاتمة نهضة التأليف فى علوم القرآن حيث فترت الهمم مدة طويلة إلى أن جاء القرن الرابع عشر الهجرى ، فظهر من المؤلفين المحدثين أفذاذ قادوا الحركة العلمية فى مضمار التأليف وكان منهم نخبة جليلة عنيت بالتدوين فى علوم القرآن مجتمعة نذكر منهم على سبيل المثال : فضيلة المرحوم الشيخ محمد على سلامة حيث ألف كتابه المسمى (منهج الفرقان فى علوم القرآن) جمع فيه منهاج قسم الدعوة والإرشاد للسنة الأولى والثانية

وتلاه فضيلة المرحوم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى حيث ألف كتابه المسمى (مناهل العرفان فى علوم القرآن) وهو أوسع من سابقه حيث جعله كتاب ثقافة عامة وهو على منهاج قسم الدعوة كسابقه لكنه لطوله لا يستوعب فى الدراسة وكان هذا من أسباب وضع هذه المذكرة المختصرة التى تناسب حال الطلاب الذين لا يتسع وقت دراستهم للكتب المطولة مع توصيتى بمراجعته فى أوقات الفراغ ومنهم فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الله دراز الذى وضع أساساً لكتاب أسماه (النبأ العظيم) طبع منه عدة ملازم ونرجو أن يوفق لاتمامه لأن الكتاب عظيم لمؤلف عظيم بأسلوب رقيق وتحقيق دقيق وليس غريباً من أستاذ موفق كالأستاذ الشيخ دراز أن يخرج للناس طرائف العلم ويجلى لهم أسرار الدين بعبارة رائعة فائقة (وهى شنشنة نعرفها من أخزم) مد الله فى عمره وهدانا وإياه إلى مافيه الخير والفلاح آمين .

وكان منهاج المؤلفين لعلوم القرآن كفن مدون غير منهاج المؤلفين له بالمعنى الاضافى - فلم يستوعب هؤلاء الجزئيات المتعلقة بكل مبحث كما فعل أولئك لأن هذا الاستيعاب غير ممكن عادة فى مؤلف واحد وإنما اقتصروا على ذكر أحكام كلية للجزئيات المتناسبة وقد يقتضى الحال ذكر بعض الجزئيات بقصد الإيضاح والتمثيل - أما أولئك الذين دونوا لعلم واحد فقد كانت مهمتهم تقتضيهم الاستيعاب كما تقدم .

(٢) الموضوع الثانى من المنهاج

نزول القرآن

مباحثه :

(ا) معنى نزول القرآن .

(ب) تنزلات القرآن ودليل كل تنزل وحكمته وكيفيته .

(ج) تنجيم القرآن الكريم وحكمته .

(د) أول ما نزل وآخر ما نزل .

(هـ) أسباب النزول وفائدة معرفتها .

(و) نزول القرآن على سبعة أحرف .

(ز) المكى والمدنى ووجوه الفرق بينهما .

(ح) ملحق الموضوع .

(ا) معنى نزول القرآن

اعلم أن النزول لغة يطلق على أحد معنيين الأول الهوى من أعلى إلى أسفل والثانى الأوى الى المكان فمن الأول (أنزل من السماء ماء) ومن الثانى (نزل الأمير المدينة) (رب أنزلنى منزلا مباركا) وكذلك كل ما اشتق من مادة النزول وما تفرع منها متعديا أو لازما وهـذان المعنيان اللغويان يقتضيان أن يكون النازل أو المنزل جرما يمكن أن يهوى أو يأوى وإذن فاستعمال النزول مسندا للقرآن أو واقعا عليه لا يصح على الحقيقة لأن القرآن بكل اطلاقاته ليس جرما لأنه أما الصفة القديمة أو الألفاظ وهى أعراض سيالة فوجب أن يصار إلى المجاز فى فهم معنى نزول القرآن الذى ورد به القرآن والحديث [١] وأقرب المجازات أن يكون الكلام من باب المجاز بالحذف والمعنى نزول حامله ويكون

---

(١) قال تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقال صلى الله عليه وسلم : (ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) .

كقوله تعالى (نزل به الروح الأمين) أو يكون من باب اطلاق الملزوم وهو النزول وارادة العلم اللازم له بالمعنى الأول اللغوى وهو الهوى : فيكون معنى إنزال القرآن الأعلام به أعلاما بلغ فى القوة درجة الأعلام الناشئ من إنزال شئ من أعلى الى أسفل ، وتكون فائدة المجاز هنا التنبيه الى شرف القرآن وعلو صاحبه علوه هو قال تعالى (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) هذا ومبحث نزول القرآن أصل لجميع مباحث علوم القرآن فوجب أن يتصدرها جميعا .

وقد ورد فى الكتاب والسنة ما يدل على أن للقرآن وجودات ثلاثة أى أن الله أعلم به على ثلاث نوبات . وبالتأمل فى النصوص يظهر أنه قد عبر فى اثنين منها بلفظ النزول فيكون المجاز فيهما فقط وأما النص الثالث والخاص بالوجود الأول هو الوجود الأول كما ستعرف فلم يرد فيه لفظ النزول فلا داعى للتأويل فيه ، ويستخلص من هذا أن التعبير عن الوجودات الثلاث بتنزلات القرآن فيه تسامح وتفصيل ذلك وتطبيقه فى المبحث التالى فاستمع اليه .

(ب) تنزلات القرآن ودليل كل تنزل وكيفيته وحكمته

جعل الله للقرآن الكريم ثلاث وجودات أى أنه أعلم به على ثلاث مراحل مرتبة حسب الرجود على ما يأتى .

الوجود الأول : الأعلام بالقرآن فى اللوح المحفوظ بكيفية وفى وقت لا يعلمهما الا الله ومن أطلعه على غيبه ـ ودليله قوله تعالى (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) ، وكان الأعلام به جملة واحدة بوساطة ما يدل عليه من النقوش ونحوها مما لا يعلمه الا الله كما تقدم ، وحكمته ترجع الى حكمة وجود اللوح المحفوظ نفسه وهى اقامة سجل عام جامع لكل ما كان وما يكون وما هو كائن مما قضى الله وقدر قال تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) الحديد وقال تعالى (وكل صغير وكبير مستطر) القمر .

و إطلاق التنزل على هذا الوجود تسامح كما قدمنا .

الوجود الثانى : الأعلام به فى بيت العزة من سماء الدنيا ودليله من الكتاب قوله تعالى « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » وقوله « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » وقوله « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » فهذه الآيات تدل على أن للقرآن تنزلا كان جملة واحدة فى ليلة من ليالى شهر رمضان هى ليلة القدر وهى الليلة المباركة فيكون غير النزول الذى كان على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم (لأن هـذا كان مفرقا على حسب الوقائع) وقد بينت السنة مكان هذا النزول فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال (نصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعـل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم) وفى رواية (أنزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة) وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة الموقوفة على ابن عباس رضى الله عنهما لكنها فى حكم المرفوعة عند علماء الحديث لاستيفاء الشروط [١] وكان هذا الأعلام بواساطة النقوش أو غيرها كما تقدم فى الأعلام الأول .

وحكمة هذا التنزل تفخيم شأن القرآن وشأن من سينزل عليه القرآن وشأن من سينزل لأجلهم القرآن بأعلام سكان السموات السبع أن هذا الكتاب الذى هو خاتم الـكتب وافضلها سينزل على خاتم الرسل وأفضلهم من أجل خاتم الأمم وخيرهم وهذا التنزل ممـا اختص الله به القرآن الـكريم فان سائر الـكتب قبله كان الأعلام بها على الرسل من اللوح المحفوظ مباشرة ـ أما هذا الكتاب الكريم فقـد اقتضت إرادته تعالى أن يعلم به جملة فى سمـاء الدنيا قبل أن يعلم به مفرقا بالنزول على الرسول الأمين عليه الصلوات واتم التسليم للحكمة التى قدمناها .

الوجود الثالث : الأعلام بوساطة الألفاظ الحقيقية التى نزل بهـا جبريل

---

(١) هى : (١) أن يكون الصحابى ثقة .
(٢) أن لا يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات .
(٣) أن يكون الموضوع ممـا لا مجال للرأى فيه .

على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا هو التنزل الأخير وهو الغاية والنهاية وبوساطته شع النور الإسلامى على العالم أجمع ووصلت بوساطته هداية الله تعالى إلى خلقه على لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم وكان ذلك بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام .

ودليل هذا التنزل مالا يحصى من الآيات والأحاديث النبوية قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين» الشعراء وقال تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » النحل .

وهذا الأعلام الثالث يختلف عن سابقيه من جهتين :

الأول كونه مفرقاً على حسب الوقائع وفي سابقيه كان الأعلام به جملة .

الثانى — كونه بوساطة الألفاظ الحقيقية التى نزلت من عند الله تعالى بخلاف سابقيه فقد كان الأعلام فيهما بوساطة ما يدل على القرآن من نقوش أو رموز أو غيرهما .

وحكمة هذا التنزل إثبات رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وهداية الخلق الى طريق الحق قال تعالى : كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » ابراهيم . وقال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » النحل .

وقال تعالى « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » الشعراء .

وقال تعالى «قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » النحل .

والذى يجب أن نؤمن به أن جبريل عليه السلام تلقى القرآن عن الله بطريق التلقف الروحانى بلفظه المخصوص او حفظه من اللوح المحفوظ أو سمعه من الله بكيفية لا يعلمها إلا هو ثم نزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

بألفاظه الحقيقية التي هي من عند الله وحده لا دخل لمحمد ولا بجبريل في إنشائها وترتيبها بل الله هو الذي خلقها ورتبها على وفق ترتيب كلماته النفسية لأجل الفهم والتفهيم والدليل على ذلك هو الآيات الصريحة في نسبة القرآن إلى الله تعالى ولا ينسب الكلام الا لمنشئه ومرتبه قال تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) التوبة . وقال تعالى (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) النمل ، وقال تعالى (واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل انما أتبع ما يوحى الى من ربي) الأعراف وقال تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الى اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) يونس ، ثم اقرأ قوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) الحاقة ، تزدد بصيرة ويقينا .

والذي يجب أن نؤمن به أيضا أن القرآن الكريم كان في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي عليه المصاحف الآن وهو الذي استقر عليه الأمر بعد اتمام انزاله على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان يعارض جبريل النبي بالقرآن كل سنة مرة فيما أنزل وفي العرضة الأخيرة (بعد ما تم انزاله كله) قرأه مع الرسول صلى الله عليه وسلم مرتين على هذا الترتيب الذي نقله عنه صحابته رضوان الله عليهم أجمعين .

وهنا يجدر بنا أن نتعرض للفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والحديث النبوي حيث أن الكل بوحي من الله عدا نوع خاص من الحديث النبوي كان باجتهاد الرسول كما ستعرفه .

ونقدم لهذا المبحث بشرح تعريف القرآن الكريم لنقول :

يعرف القرآن الكريم بأنه كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته .

فالكلام جنس وإضافته إلى الله يخرج كلام من سواه من الجن والإنس والملائكة (١) والمنزل مخرج للكلام الإلهى الذى استأثر الله به فى نفسه أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوا به على أحد من البشر وهو كثير قال تعالى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) الكهف . وقال جل شأنه (ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) لقمان . وعلى محمد صلى الله عليه وسلم لإخراج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف .

والمتعبد بتلاوته أى المأمور بقراءته فى الصلاة وغيرها على وجه العبادة لاخراج قراءات الآحاد والأحاديث القدسية على ما هو المشهور من أنها منزلة من عند الله بألفاظها : ولكن لم يتعبدنا الله بها فى الصلاة كالقرآن .

والأحاديث النبوية تنقسم بحسب ما حوته من المعانى إلى قسمين الأول توفيق بالغاء أولا وهو ما استنبطه الرسول صلى الله عليه وسلم بفهمه فى كلام الله أو بتأمله فى حقائق الكون وهذا ليس كلام الله قطعا والثانى توقيفى بالقاف أولا وهو ما تلقى الرسول مضمونه من الوحى ليبينه للناس بكلامه وهذا القسم من حيث هو كلام حرى بأن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحينئذ فالحديث النبوى بقسميه خارج بأول قيد ، وكذلك الحديث القدسى على القول بنزوله بالمعنى فقط فيكون كالقسم الثانى من الحديث النبوى وعلى هذا الرأى فما يلوح من إسناد الحديث القدسى إلى الله بصيغته مثل (يقول الله تعالى) فالمقصود منه نسبة مضمونه لا نسبة ألفاظه وهذا تأويل شائع فى اللغة العربية غاية ما فى الباب أن هذا النوع من الحديث قطعنا بنزوله بمعناه لورود النص الشرعى على نسبته إلى الله بخلاف الأحاديث النبوية فلم يرد فيها هذا

---

(١) كما يخرج الحديث القدسى على قول من رأى أن لفظه من عند الرسول ومعناه من عند الله .

النص فجاز أن يكون المعنى منزلا وأن يكون مستنبطا ، وأما على القول المشهور بنزول الحديث القدسى باللفظ فيخرج كما تقدم بالقيد الأخير (المتعبد بتلاوته) .

ومجمل القول أن القرآن الكريم أوحيت ألفاظه إجماعا كما قدمنا وكانت لألفاظه خصوصيات ميزته عن غيره وهى :

أولا : التعبد بالتلاوة .

ثانيا : الإعجاز به .

ثالثا : وجوب أدائه بلفظه لأن لفظه مناط إعجازه فتحرم روايته بالمعنى

رابعا : حرمة قراءته للجنب والحائض والنفساء . كما يحرم مس المصحف للمحدث .

أما الحديث القدسى فقد أوحيت ألفاظه أيضا على المشهور ، لكن ليس له هذه الخصائص ، ولذا صح أداؤه بالمعنى كما صح قراءته لكل إنسان ، وليس لفظه معجزا ولا متعبدا بتلاوته .

وأما الحديث النبوى فقد أوحيت معانيه إجماعا فى غير ما اجتهد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالأولى لا يكون له خصوصيات القرآن الكريم ، ولذا صح روايته بالمعنى ، والله بعباده خبير بصير ، وله فى خلقه شئون ، فاقتضت إرادته تنويع وحيه الى قرآن كريم وحديث قدسى وحديث نبوى .

(ح) تنجيم القرآن الكريم وحكمته

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجما أى مفرقا على حسب الوقائع والأسباب والمقتضيات فى مدى ثلاث وعشرين سنة بخلاف الكتب السابقة فانها أنزلت على الرسل جملة واحدة ، أما دليل نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم مفرقا ، فقوله تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » الإسراء ، وقوله تعالى حكاية عن الكفار وردا عليهم :

« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » الفرقان .

وهذه الآية كما تدل على أن القرآن نزل مفرقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أن غير القرآن نزل جملة واحدة .

أما وجه دلالتها على أن القرآن نزل مفرقا فلأنها سيقت لحكاية سؤال الكفار واعتراضهم على كيفية نزوله ، ولو كان قد نزل جملة واحدة لما اعترضوا لأن نزوله كذلك يوافق السنة الإلهية فى نزول الكتب قبله .

وأما وجه دلالتها على أن غير القرآن نزل جملة واحدة فهو أن الله تعالى لم يرد عليهم بأن التفريق سنته تعالى فى إنزال الكتب ، ورد عليهم فى قولهم : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » الفرقان بقوله « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » الفرقان

وكما رد عليهم فى قولهم : « أبعث الله بشرا رسولا » الإسراء بقوله : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » الأنبياء ، ولكنه تعالى أجابهم ببيان الحكمة فى إنزال القرآن مفرقا بقوله « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » الفرقان .

هذا وقد كان تفريق القرآن على حسب الوقائع والحوادث المتجددة ، والمقتضيات من أول مبعث المصطفى صلى الله عليه وسلم الى قرب انتقاله الى الرفيق الأعلى ، وذلك ثلاث وعشرون سنة على ما هو الراجح منها فى مكة ثلاث عشرة سنة وفى المدينة بعد الهجرة عشر سنين مع ملاحظة التقريب فى هذا التقدير .

أما حكمة هذا التنجيم فمن وجوه كثيرة نجملها ولا نحصيها فى أربعة :

الحكمة الأولى : تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم .

وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كلف مهمة شاقة هى تبليغ الرسالة التى جاء بها من عند ربه لقوم مردوا على العناد وأوغلوا فى طرق الفساد وناصبوه العداء وافتنوا فى سبل الإيذاء — وكان صلى الله عليه وسلم يلاقى منهم عنتا وجموحا وإعراضا بل وإيذاء له ولأتباعه ومناهضة لدعوته فاقتضت حكمته تعالى أن يجدد

له من آن لآخر من الوحى القرآنى ما يخفف عنه عبء هذه المتاعب ويشجعه على تبليغ الدعوة وأداء الرسالة كاملة غير منقوصة .

ومن مظاهر هذه الحكمة :

(١) تجدد سروره صلى الله عليه وسلم عند نزول القرآن ومجئ الوحى لأنه كان يترقبه ويفرح به ويجد فى تلقيه لذة روحية عظيمة ، فكان ذلك يسرى عنه ما يلاقيه من شدائد الدعوة .

(٢) تجدد التحدى لقومه : فكلما نزل وحى القرآن ظهر عجزهم وتجدد حزنهم وبالتالى اشتد أزره صلى الله عليه وسلم وتثبت فؤاده .

(٣) تيسير حفظه وفهمه عليه صلى الله عليه وسلم — فانه كان حريصا على وعى القرآن وحفظه وفهمه ، والتنجيم أعون على ذلك .

(٤) تعهد الله اياه بأنواع التسلية المختلفة المتجددة بتجدد الشدائد فكلما أحرجه خصمه سلاه ربه وذلك أما بقص القصص عليه (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) هود أو بوعده النصر هو وحزبه (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) الطور (وينصرك الله نصرا عزيزا) الفتح (ولينصرن الله من ينصره) الحج (والله يعصمك من الناس) المائدة (أو بوعيد من لم يتبع شريعته ولم يهتد بهديه (سيهزم الجمع ويولون الدبر) القمر (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) حم السجدة وقد تكون التسلية ببيان أنه على الحق المبين أو ببيان أن المانع من إيمان قومه يرجع إليهم هم لا الى دعوته أو ببيان العلاج الناجع فى الشدائد وهو الصبر (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) الأحقاف . (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فاطر . (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم) النحل .

ملاحظة : هذه الحكمة هى أهم حكم تنجيم القرآن ويمكن إرجاع باقى الحكم اليها ولذلك اقتصر الله عليها فى الرد على الكفار حين اعترضوا على تفريق القرآن

بقولهم (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) فقال لهم (كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) الفرقان .

الحكمة الثانية : التدرج فى تربية الأمة المحمدية .

من المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم بعث فى أمة لها من عوائدها وعقائدها ومعاملاتها ما يعجز عن تحويلهم عنها أبرع الوعاظ وأعظم الساسة لولا أن كان من الله تعالى التأييد لرسوله صلى الله عليه وسلم بالسياسة الحكيمة التى جاء بها القرآن الكريم حيث عالجهم علاج الطبيب الماهر ونقلهم تدريجيا من حالهم السيئة الى تعاليم الدين الحنيف فأخرجهم من الظلمات الى النور باذن ربهم ، وجعل من الأمة الجاهلة المتوحشة المتعادية المتخازلة أمة مثقفة متمدينة متحابة متحدة ملكت زمام الأمر وسادت الأمم وفتحت الحصون ومن مظاهر هذه الحكمة .

(١) التدرج فى التخلى عن الرذائل — فكلما نجح القرآن فى هدم باطل انتقل الى هدم باطل آخر وكلما انتصر فى محاربة رذيلة انتقل الى غيرها مبتدئا بالأهم . ثم المهم .

(٢) التدرج فى التحلى بالفضائل من العقائد الحقة الى العادات الصحيحة ومن الأخلاق الفاضلة الى المعاملات النافعة وهكذا كما يظهر ذلك لمن عرف ترتيب نزول القرآن .

(٣) تيسير حفظه وفهمه عليهم فانهم كانوا أشد الناس حرصا على أن يعوه فى صدورهم ويتفهموه جيدا والتنجيم أهون على ذلك .

(٤) تثبيت فؤادهم بتجدد السرور والتحدى والتسلية بقص القصص ووعد النصر ووعيد الأعداء الخذلان بمثل ماسبق فى تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم — كقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) . الآية من سورة النور (يأيها الذين آمنوا

إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم » محمد « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين الآية » القصص .

ملاحظة : هذه الحكمة هى التى أشار الله إليها بقوله « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » الإسراء .

الحكمة الثالثة : مسايرة الحوادث والوقائع .

وذلك أن ما ينزل لسبب حادثة معلومة يكون أوعى فى الذكر وأثبت فى النفس وأنسب فى التشريع .

ومن مظاهر هذه الحكمة :

(١) إجابة السائلين على أسئلتهم المتجددة التى توجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم إما للتثبت من نبوته « و يسألونك عن الروح ، يسألونك عن الساعة : و يسألونك عن ذى القرنين » أو للاستفسار عن حكم من الأحكام « يسألونك ماذا ينفقون : و يسألونك عن اليتامى : يسألونك عن الخمر والميسر » البقرة .

(٢) بيان أحكام الوقائع المتجددة عند حدوثها : كآيات الإفك التى نزلت عقب حادث الإفك : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ـ الآيات العشرة من سورة النور » وكآيات الظهار نزلت بعد حادث الظهار وشكوى خولة بنت ثعلبة من زوجها أوس بن الصامت ومجادلتها الرسول صلى الله عليه وسلم « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ـ الآية من سورة المجادلة » وكآيات اللعان نزلت عقب شكوى هلال بن أمية من زوجته « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ـ الآية من سورة النور » وغيرذلك كثير .

(٣) تعهد الله المسلمين وتنبيههم الى تصحيح أغلاطهم و إرشادهم الى واجبهم كآيات العتاب فى غزوة أحد «و إذ غدوة من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال الآية من سورة آل عمران » وكآيات غزوة حنين « و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ـ الآية من سوة التوبة » .

(٤) تعهد الله نبيه صلى الله عليه وسلم وتنبيهه الى المرتبة العليا من الكمال بازاء ما يقع منه باجتهاده المشروع له ليربيه ربه على الكمال ويكمله على أحسن مثال . ولا زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يترقى فى الكمالات حتى انتهى الى حيث شاء الله قال صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ومن أنواع هذا التنبيه (عفا الله عنك لم أذنت لهم) التوبة (ما كان لنبى أن يكون له أسرى الأنفال (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) عبس (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك » الأحزاب .

(٥) كشف حال المنافقين وهتك أسرارهم من وقت لآخر ليكون المؤمنون على بصيرة منهم لأنهم أخطر على الإسلام من الكفار المجاهرين ثم لعلهم بهذا الإعلان يخلصون ويؤمنون وآيات ذلك كثيرة فى كثير من السور (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ـ الآيات من السورة البقرة) (الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله ـ الآيات من سورة النساء) (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله ـ الآيات من سورة المنافقون)

ملاحظة : هذه الحكمة هى التى أشار الله اليها بقوله (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) الفرقان .

الحكمة الرابعة : الإرشاد الى مصدر القرآن .

ذلك لأن القرآن مع نزوله مفرقا تقرأه كله فاذا هو سلسلة ذهبية أفرغت مرة واحدة وتراه متشابه البلاغة متناسق الترتيب متين الأسلوب رقيق السبك لا ترى تفاوتا بين أجزائه ولا تمايزا بين سورة وآياته — هذا التآلف والتناسق والتشابه لا يستطيع كائن أيا كان بل ولا الخلق أجمعون أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ؛ وأنى لهم أن يأتوا بكلام محكم الاتصال متآلف البدايات والنهايات على طوله ومع خضوعه لوقائع الزمن وأحداثه ومع تراخى زمان النزول وتفاوت آماد النجوم .

أليس ذلك برهانا ساطعا على أن القرآن ليس من وضع البشر ؟ وإنما هو من صنع خالق القوى والقدر (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) الزمر . (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله) هود . (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) الإسراء .

(د) أول ما نزل وآخر ما نزل

فائدة معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل تمييز الناسخ والمنسوخ عند التعارض ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامي وادراك حكمة التدرج في التشريع وهو ما امتاز به الإسلام في سياسته الحكيمة ولأجله نزل القرآن مفرقا كما سبق ، وفوق ذلك نعرف مدى عناية السلف الصالح والمسلمين الأولين بالقرآن الكريم فقد دونوا هذا المبحث وغيره مما يحفظ على القرآن الكريم الثقة به ويحيطه بسياج من العناية حتى لا يلحقه التغيير والتبديل كما حصل لغيره من الكتب السابقة .

وأول ما نزل وآخر ما نزل يطلق باطلاقين :

الأول — أول ما نزل من القرآن الكريم وآخر ما نزل منه على الإطلاق أي أول ابتداء الوحي بالقرآن وآخر آية نزلت منه .

الثانى — أول ما نزل فى كل تعليم من تعاليم الشريعة وآخر ما نزل فيه مما استدعاه التدرج فى التشريع الإسلامى .

والنوع الأول هو الذى يعنينا فى هذا المنهاج المحدود — أما النوع الثانى فاستيعابه غير ميسور هنا لأنه مجهود واسع طويل أفرد بالتأليف .

وقد اختلف فى أول ما نزل على الإطلاق وآخر ما نزل كذلك .

وأصح الأقوال فى أول ما نزل على الاطلاق أنه هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق الى قوله علم الإنسان مالم يعلم » العلق . ودليله حديث البخارى .

ومسلم المروى عن عائشة رضى الله عنها فى باب كيف كان بدأ الوحى ولفظه (أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة رضى الله عنها فتزوده لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فيه فقال اقرأ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال إقرأ فقلت ما أنا بقارئ ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال إقرأ باسم ربك الذى خلق حتى بلغ مالم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره) الخ الحديث .

وقد وردت روايات كثيرة أخرى تؤيد هذا القول ، وهو المشهور عند الرواة .

وقيل إن أول ما نزل هو سورة المدثر « يا أيها المدثر قم فأنذر السورة » ودليله ما رواه الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال سألت جابر بن عبد الله أى القرآن أنزل قبل : قال يا أيها المدثر قلت أو إقرأ باسم ربك قال له أحدثكم ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم

(إنى جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى ثم نظرت إلى السماء فاذا هـو يعنى جبريل فأخـذتنى رجفة فأتيت خديجة فامرتهم فدثرونى فانزل الله يأيها المدثر قم فأنذر) .

ويجاب عن حديث جابر هـذا بأن كلامه فى أول ما نزل بعـد فترة الوحى يؤيد ذلك مارواه الشيخان عن جابر نفسه قال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهـو يحدث عن فترة الوحى فقال (بينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرجعت فقلت زملونى زملونى فأنزل الله يأيها المدثر) فهـذا يدل على أن هـذه القصة متأخرة عن قصة حراء التى نزل فيها اقرأ فتـكون أولية اقرأ مطلقة وأولية المدثر مقيدة بما بعد فترة الوحى أو بالسورة بكالها لأن المـدثر نزلت بكالها قبل تمـام سورة اقرأ .

وقيل أول ما نزل سورة الفاتحة ـ وقيل أول ما نزل بسم الله الرحمن الرحيم وأدلة القولين أحاديث مرسلة لا تقوى على معارضة الحديث المرفوع وهـو حديث عائشة الذى سقناه دليلا على القول الأول ـ فيكون هو الراجح المعتمد أما آخر ما نزل على الإطلاق فليس فيه حـديث مرفوع إلى رسول الله صلى الله علية وسلم ولذا اشتد فيه الخلاف وكثرت الأقوال .

وأرجحها أنه هو قوله تعـالى (واتقوا يوما ترجعون فيـه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) البقرة وذلك مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ويرجع اليه القول بأن آخر ما نزل آية الربا والقـول بأن آخر ما نزل آية المداينة لأن الآيات الثلاث نزلت دفعة واحدة فأخبر كل واحد عن بعض ما نزل ؛ وقيل آخر ما نزل آية(يستفتونك قل الله يفتيكم فى الـكلالة)النساء وقيل

هو سورة المائدة وقيل آيه (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل الآية) آل عمران وقيل هو سورة النصر .

وهـذه الأقوال مؤيدة بآثار وهى بحسب الظاهر متعارضة والجمع بينها نحمـل القول الأول على الآخرية المطلقة لكثرة الآثار الواردة فيها وقوتها وأما الأقوال الأخرى فتحمل على آخرية مقيدة بالمعنى الذى نزلت فيه من الميراث أو الحلال والحرام أو التصريح بذكر النساء أو مايشير إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم — وقال القاضى أبو بكر فى الجمع يحتمل أن كل واحد أخبر عن آخر ماسمعه من رسول الله فى اليوم الذى مات فيه أو قبله بقليل .

وأما القول بأن آخر مانزل هو قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم الآية) المائدة لأنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع وظاهرة فى إتمام جميع الفرائض والأحكام والحلال والحرام فيرده أنه نزل بعدها قرآن مثل آيات الربا والدين والكلالة وآية القتل وسورة المائدة و باقى سورة براءة و أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعد حجة الوداع احدى وثمانين ليلة فيجب أن يحمل معنى الآية على ان الله أكمل للمسلمين دينهم باقرارهم فى البلد الحرام واجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون وحدهم لا يشاركهم المشركون فكان ذلك من تمام النعمة عليهم — وأما آية البقرة (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) فلم يعش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم الا تسع ليال فكانت هى الآخرة على ماقدمنا .

أما بعد فان مدار معرفة أول مانزل وآخر مانزل على الاطلاق أو مقيدا هو النقل الصحيح ولامجال للعقل فيه الابقدر الترجيح أو الجمع والله أعلم .

(هـ) أسباب النزول

سبب النزول هو الأمر الذى نزل بسببه قرآن أيام وقوعه أو هو ما نزل قرآن متحدثا عنه أو مبينا لحكمه — وقد كان بعض القرآن ينزل بسبب الحوادث المتجددة من سؤال أو غيره كما أن كثيرا من القرآن كان ينزل ابتداء من غير

سبب خاص ومن هـذا النوع ما يكون متحدثا عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو الحاضرة أو المستقبلة ويلاحظ أن كل القرآن نزل للحكمة العامة التى قدمناها وهى إثبات رسالة الرسول وإرشاد الخلق إلى طريق الحق وإنما الكلام هنا فى السبب الحادث الخاص الزائد على السبب العام فلا تغفل .

ثم إن استيعاب بيان ما نزل من القرآن على سبب خاص لا يعنينا فى هـذا المنهاج كما قدمنا غير مرة لأنه مجهود طويل أفرده بعض المؤلفين بالتدوين ومنهم ابن المدينى والسيوطى فى كتابه لباب النقول فى أسباب النزول ولكن الذى يعنينا هنا هو الكلام على سبب النزول من جهة مباحثه العامة كتعريفه وطريق معرفته وصيغته وفائدة الوقوف عليه وحكم تعدده والنازل واحد وبالعكس وحكم تساويه مع النازل عموما وخصوصا أو اختلافه معه فى ذلك ،

أما تعريفه فقد تقدم وقولنا فيه أيام وقوعه يخرج آيات القصص فان حوادثها لا تعتبر أسباب نزول ويبقى فى التعريف ما نزل بسبب سؤال أو حادثة أيام وقوعها .

وأما طريق معرفة سبب النزول فهو النقل الصحيح ولا دخل للعقل فى ذلك إلا بقدر الترجيح أو الجمع عند تعارض الأدلة .

وأما صيغته التى يعبر بها عنه فتارة تكون بلفظ صريح فى السببية فيكون نصا فيها مثل قولهم (سبب نزول هذه الآية كذا) ومثله أن تذكر الحادثة ثم يقال (فنزلت الآية) ،

وتارة يعبر بلفظ (نزلت الآية فى كذا) فيحتمل السببية ويحتمل بيان ما تضمنته الآية من الحكم .

وتارة تكون الرواية دالة على السببية بمعونة المقام من غير تصريح بلفظ مما لقا وذلك كثير جدا وهذا يعتبر نصا فى السببية كالنوع الأول .

وسيأتيك انتفاع بمبحث الصيغة عند الكلام على تعدد السبب والنازل واحد فانتظره .

وأما فائدة الوقوف على أسباب النزول فمن وجوه كثيرة نجملها فى خمسة أوجه

الأول : معرفة حكمة الله تعالى فيما شرع من الأحكام فتظهر رحمة الله فى مسايرة الحوادث ورعاية المصالح والسير على السياسة الحكيمة التى كان لها أبعد الأثر فى نشر الدعوة الإسلامية وحينئذ يزداد المؤمن إيمانا وينساق المعاند إلى الإيمان حيث يعلم أن تعاليم الدين بعيدة عن العنت والمشقة وفيها رعاية المصالح والرأفة بالعباد .

الثانى : الاستعانة على فهم القرآن الذى نزل على سبب فان كثيرا من الآيات لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بملاحظة السبب من ذلك قوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله [١]) — وقوله تعالى (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم [٢] — وقوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما [٣]) ونحو ذلك كثير ، وظاهر المعنى غير مراد وإنما المراد يظهر بعد معرفة السبب .

الثالث : معرفة أن العموم فى الآية مراد به الخصوص وذلك عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ .

الرابع : مراعاة بقاء صورة السبب اذا ورد مخصص على اللفظ العام حتى لا يخرج السبب بالتخصيص لأن خروجه مخالف للاجماع .

الخامس : تيسير الحفظ والفهم لأن ربط الأحكام بالحوادث وربط الحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة من دواعى التقرير والتأكيد والتثبيت .

وأما حكم تعدد الروايات فى سبب النزول فيختلف باختلاف الصيغة وقد قدمنا أنها قسمان نص ومحتمل — فان كانت الصيغة غير صريحة فى إفاده السببية مثل (نزلت الآية فى كذا) فلا تعارض لأنه يمكن الجمع بين الروايات ،

---

(١) البقرة . (٢) آل عمران . (٣) البقرة .

ويكون المراد فى بعضها السببية إذا قامت قرينة عليها وفى بعضها ما يستفاد من الآية من الأحكام : فاذا لم تقم قرينة فى بعضها على السببية كان المراد من الجميع ما يتناوله اللفظ من الأحكام .

وإن كانت أحداهما نصا فالعبرة بها وتحمل الثانية على ما تفيده الآية من الأحكام : وذلك مثل ما ورد فى سبب نزول قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » راجع المطولات .

أما إذا تعددت الروايات وكلها نص فى السببية فهنا يتفرع الكلام فان كانت أحداها صحيحة والباقى غير صحيح قدمت الصحيحة على غيرها وذلك مثل ما ورد فى سبب نزول قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى » وإن كان الكل صحيحا قدمت الراجحة وذلك مثل ما ورد فى سبب نزول قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح » وإن تساوى الجميع فى الرجحان جمع بينها إن أمكن فتكون الآية نزلت بعد الأسباب جميعا حيث تقارب زمنها ولا مانع من ذلك كآيات اللعان «والذين يرمون أزواجهم» الآيات من سورة النور، نزلت فى هلال وعويمر بعد حادثتيهما .

وأما إذا لم يمكن الجمع لتباعد الزمان فيكون من باب تعدد السبب وتكرار نزول الآية أو الآيات ولا مانع منه عقلا ولا شرعا لأنه من باب لفت النظر الى ما تكرر نزوله لما فيه من الوصايا النافعة والفوائد الكثيرة وذلك كخواتيم سورة النحل « وإن عاقبتم الى آخر السورة » نزلت فى غزوة أحد لما قتل سيدنا حمزة سيد الشهداء وعم المصطفى صلى الله عليه وسلم فحزن الرسول عليه وقال (لأمثلن بسبعين منهم مكانك) ونزلت فى غزوة الفتح لما انتصر المسلمون وهموا بالانتقام ـ وكانت قد نزلت ضمن سورة النحل التى نزلت كلها بمكة قبل الهجرة لا على سبب خاص .

وأما عكس ذلك : وهو تعدد النازل والسبب واحد فلا اشتباه فى وقوعه ولا مانع منه وذلك كآيتى « يحلفون بالله ماقالوا » سورة التوبة « يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم » سورة المجادلة ـ نزلتا على سبب واحد وهو

حلف الكفار للرسول كذبا أنهم ما شتموه ولا عرضوا به، وكآيات « فاستجاب لهم ربهم » سورة آل عمران « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » سورة النساء « إن المسلمين والمسلمات » سورة الأحزاب — نزلت ثلاثتها على سبب واحد وهو قول أم سلمة رضى الله عنها يا رسول الله ما نرى الله يذكر النساء .

وأما الكلام فى تساوى النازل : مع السبب عموما وخصوصا وعدم تساويه معه فمبحث طويل عريض استنفد من الأصوليين مجهودا عظيما ووقتا واسعا نجمله فيما يلى باختصار :

١ — اذا اتفق النازل مع سببه فى العموم أو الخصوص فالأمر ظاهر ولا كلام فيه ومنه فى العموم « ويسألونك عن اليتامى الآية — ويسألونك عن المحيض الآية » سورة البقرة .

ومنه فى الخصوص « وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى » سورة الليل فان السبب واللفظ خاصان بأبى بكر رضى الله عنه لأن الأتقى أفعل تفضيل مقرون بأل العهدية فيختص بمن نزل فيه ، وقد استدل الإمام الرازى بالآية مع قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فى الحجرات على أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رأى وجيه .

٢ — كون السبب عاما والنازل أخص منه صورة ممنوعة شرعا وبلاغة لعدم التطابق بين السبب الذى هو بمنزلة السؤال وبين النازل الذى هو بمنزلة الجواب (وقد يكون السبب سؤالا والنازل جوابا) وذلك نقص فى البيان والإفادة

٣ — بقى الكلام فى العكس ، وهو ما إذا كان السبب خاصا والنازل أعم منه ، وهنا يحتدم النزاع بين جمهور الأصوليين والفقهاء وبين غيرهم فعند الجمهور العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب إلا لقرينة كما يأتى وعند غيرهم العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ويكون الكلام من العام الذى أريد به الخصوص .

وقد اتفق الفريقان على أن الحكم الذى يؤخذ من اللفظ عام فى صورة السبب وغيرها — كما اتفقا على أن دليل صورة السبب هو اللفظ العام — وإنما

الخلاف فى دليل الحكم لغير صورة السبب فالجمهور يرون أنه النص الدى فى اللفظ العام كصورة السبب وغيرهم يرى أنه دليل آخر ليس من اللفظ فهو أما قياس أو إجماع أو قول الرسول صلى الله عليه وسلم (حكمى على الواحد حكمى على الجماعة) .

مثال ذلك حادثة قذف هلال بن أمية زوجته نزلت فيها آيات اللعان بلفظ عام « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم الآيات » النور فالجمهور يرون أن اللفظ على عمومه يتناول أفراد القاذفين أزواجهم سواء منهم هلال بن أمية وغيره ـ وإن كان هلال داخلا دخولا أوليا لأنه السبب ـ ولا يحتاج الحكم فى غير هلال إلى دليل آخر خلاف اللفظ العام : وغيرهم يرى أن اللفظ قاصر على هلال الذى نزل فيه اللفظ وأما أشباهه من القاذفين فانه يعلم حكمهم بطريق القياس أو غيره ، على ما تقدم .

أدلة الفريقين :

أولا : إن لفظ الشارع عام وهو وحده الحجة دون نظر إلى سؤال أو سبب بل قد يصرف الشارع النظر اليهما لحكمة وهو ما يسمى أسلوب الحكيم كما فى قوله تعالى « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » البقرة .

ثانيا : الأصل حمل اللفظ على معناه المتبادر منه عند الإطلاق حيث لا قرينة تصرفة عن هذا الظاهر ـ وخصوصية السبب لا تصلح قرينة صارفة لما قدمناه فى الأمر الأول .

ثالثا : احتجاج الصحابة والمجتهدين قائم فى سائر الأمصار والأزمان بعموم اللفظ الوارد على سبب خاص فى كل الحوادث المتجددة الشبيهة بصورة السبب فصار ذلك إجماعا منهم على اعتبار عموم اللفظ ودلالته على الحكم فى غير صورة السبب . فاستدلوا بآية السرقة على وجوب قطع كل يد سرقت مع أنها نازلة فى خصوص سرقة المجن أو رداء صفوان وبآيات الظهار على وجوب الكفارة على كل

من ظاهر ثم عاد مع نزولها في خصوص امرأة قيس بن ثابت ومثل ذلك آيات اللعان .

واستدل غير الجمهور بأمور :

أولا : أنه لو بقي اللفظ عاما لتساوت صورة السبب وغيرها في جواز الإخراج عند المخصص مع أن الإجماع قائم على عدم جواز إخراج صورة السبب كما تقدم في الكلام على فائدة معرفة أسباب النزول .

ويجاب بأن التساوي ممنوع لوجود هذا الإجماع القاضي بأن لصورة السبب خصوصية كونها سببا فلا تخرج بالمخصص أبدا .

ثانيا : لو لم يكن العام قاصرا على صورة السبب لما كان لصورة السبب فائدة كيف وقد اهتم الرواة بنقلها وتدوينها .

ويجاب بأن لأسباب النزول فوائد جمة ومزايا عديدة غير قصر اللفظ العام على صورة السبب وقد تقدمت فارجع إليها تزدد بيانا .

ثالثا : لو لم تكن العبرة بخصوص السبب لحنث من قال (والله لا تغذيت) جوابا لمن قال (تغذ عندي) إذا تغذى عند غيره .

والجواب : أن عدم الحنث بسبب ملاحظة العرف الخاص لا من خصوص السبب فيكون العرف قرينة وكلامنا فيما لم تقم فيه قرينة على الخصوص فليست هذه المسألة من محل النزاع . وذلك مثل أن يقال كلم فلانا في كذا فتقول والله لا أكلمه أبدا يعني فيما طلب مني أن أكلمه فيه .

رابعا : إن التطابق بين السبب والمسبب كالتطابق بين السؤال والجواب واجب عند البلغاء وهو لا يتحقق إلا إذا خص اللفظ العام بسببه الخاص وهو المدعى .

ويجاب : بأن بقاء العام على عمومه لا يخل بالتطابق لأن المقصود بالمطابقة بيان حكم السبب والبيان كما يكون بالتساوي يكون بالعموم بل أن العموم يوفي المقصود ويزيد وإن أردت زيادة إيضاح فعليك بكتب الأصول والله الموفق والمعين .

و- نزول القرآن على سبعة أحرف

ورد نزول القرآن على سبعة أحرف من طرق كثيرة عن جمع كثير من الصحابة حتى أن الخليفة عثمان رضي الله عنه قال يوما على المنبر (أذكر الله رجلا سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف لما قام - فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك - فقال عثمان رضي الله عنه وأنا أشهد معهم) - فمن هذه الروايات .

(١) ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أقرئنى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده و يزيدنى حتى انتهى الى سبعة أحرف) زاد مسلم (قال ابن شهاب بلغنى أن تلك السبعة في الأمر الذى يكون واحدا لا يختلف فى حلال ولا حرام)

(٢) ما رواه البخارى ومسلم أيضا - واللفظ للبخارى - أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرؤها على حروف كثيره لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره في الصلاة فانتظرته حتى سلم ثم لببته بردائه أو بردائي فقلت من أقرأك هذه السورة قال أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت له كذبت فوالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنى هذه السورة التي سمعتك تقرأها فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها وأنت أقرأتنى سورة الفرقان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله يا عمر : اقرأ يا هشام فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه) .

(٣) ما رواه مسلم عن أبى بن كعب قال كنت في المسجد فدخل رجل يصلى

فقرأ قراءة أنكرتها عليه (١) ثم دخل آخر : فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه فقلت إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرءا فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقد غشيني ضرب فى صدرى ففضت عرقا وكأنما أنظر الى الله عز وجل فرقا : فقال لى يا أبى أرسل إلى أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتى فرد الى الثانية اقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتى فرد الى الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردتكها مسألة تسألنيها : فقلت اللهم اغفر لأمتى اللهم اغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم صلى الله عليه وسلم .

ملاحظه ـ يظهر أن فى الحديث سقطا ـ وأن الردة الثالثة جاء بعدها الإذن بالقراءة على ثلاثة أحرف فلا بد أن يكون هناك ردة رابعة جاء بعدها الإذن بالقراءة على سبعة أحرف وذلك حتى تتفق الروايتان (هذه وما بعدها) .

(٤) ما رواه مسلم عن أبى بن كعب أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة (٢) بنى غفار قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك (٣) القرآن على حرف فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وأن أمتى لا تطيق ذلك ثم أتاه الثانية فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين فقال أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتى لا تطيق ذلك ثم جاء الثالثة فقال إن الله

---

(١) وذلك قبل أن يعرف نزول القرآن على سبعة أحرف أما بعد أن عرف ذلك فلم ينكر بل روى هو حديث النزول على سبعة أحرف وهو ما فى رقم (٤).

(٢) الأضاة الغدير .

(٣) مبنى للفاعل مع رفع أمتك .

يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وأن أمتى لا تطيق ذلك ثم جاء الرابعة فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا .

ويؤخذ من هذه الروايات وغيرها مما يماثلها فى المعنى وهو كثير ما يأتى :

أولا — أن الاقتصار على حرف واحد فيه حرج على الأمة ومشقة عظيمة فى تلاوة القرآن فقد اشتهر عند كل قبيلة ألفاظ لم تشتهر عند غيرهم والمدلول واحد فلو كلفوا حرفا واحدا فى القراءة لشق عليهم ذلك .

ثانيا — أن الحكمة فى نزول القرآن على الأحرف السبعة هو التيسير على الأمة المحمدية عامة وعلى الأمة العربية خاصة فى رفع هذا الحرج وهناك حكم أخرى يمكن استنباطها عند الكلام على (القراءات والقراء) وسيأتيك قريبا إن شاء الله فانتظره) .

ثالثا — تخيير الأمة فى القراءة بأى حرف من السبعة من غير أن تجب عليهم القراءة بوجه خاص .

رابعا — أن الصحابة رضوان الله عليهم لما اختلفوا فى القراءة صوب الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قراءة كل .

خامسا — أن الأحرف لا تخرج عن سبعة وكلها فى الألفاظ وحدها ولا دخل للمعانى فى ذلك وأن تلك الأحرف وجوه فى النطق والتلفظ .

سادسا — أن السبعة الأوجه كلها نازلة من عند الله مأخوذة بالتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا دخل لأحد غير منزلها فيها .

وعلى ضوء هذه الشواهد يكون معنى نزول القرآن على سبعة أحرف نزوله موسعا فيه على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه بحيث يقرأه بأى وجه أراد منها على البدل من صاحبه .

فقول بعضهم أن الحديث مشكل لأن للحرف معانى كثيرة (حرف الهجاء — ما ليس باسم ولا فعل — الكلمة — الوجه) وهو مشترك فيها مردود بأنه لا يلزم

من كون الحروف مشتركا بين جملة معان اشكاله لأن القرينة عينت المراد من تلك المعانى وهو (الوجه) كما تقدم وهو ظاهر الروايات كما أن قول بعضهم (إن لفظ السبعة فى الحديث الشريف ليس مرادا به حقيقة العدد المعروف بل هو كناية عن الكثرة فى الآحاد) يدفع بأن استزادة الرسول صلى الله عليه وسلم للتيسير على أمته أوصلت الحروف إلى ستة غير الحرف الذى أقرأه أمين الوحى عليه أول مرة فتكون سبعة كاملة بمنطوقها ومفهومها وتأمل حديث ابن عباس السابق وهو أول حديث ذكرناه فى الاستدلال على نزول القرآن على سبعة أحرف .

يضاف إلى ذلك المراجعات الثابتة فى الأحاديث الأخرى فعلم من مجموع الروايات أن المراد بسبعة خصوص العدد المعروف وهو ما بين الستة والثمانية .

أما بعد فقد اختلف العلماء فى الوجوه (التى فسرت بها الأحرف السبعة فى الحديث) على أقوال كثيرة نقتصر على أشهرها .

القول الأول : أن المراد بالأحرف السبعة اختلافات القرآن فى أمور سبعة .

(١) اختلاف الأسماء بالأفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث نحو والذين هم لآمانتهم وعهدهم راعون قرئ بالجمع والإفراد فى كل من الموضعين (سورة المؤمنون وسورة المعارج) .

(٢) اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر نحو(فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) فى سورة سبأ قرئ باعد بصيغة الأمر مع نصب ربنا كما قرئ بعد بالتضعيف مع رفع ربنا .

(٣) اختلاف وجوه الإعراب نحو (ولا يضار كاتب ولا شهيد) قرئ بفتح الراء وضمها على كون لا ناهية ونافية .

(٤) الاختلاف بالزيادة والنقص نحو (وما خلق الذكر والأنثى) قرئ والذكر والأنثى .

(٥) الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو (فيقتلون ويقتلون) قرئ بالبناء للفاعل فى الأول وللمفعول فى الثانى . وقرئ بالعكس .

(٦) الاختلاف بالإبدال نحو (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) قرئ بالزاى المعجمة وبالراء المهملة مع فتح النون .

(٧) اختلاف اللهجات بالأمالة والترقيق والتفخيم والأظهار والأدغام وأمثلته مشهورة .

وهذا الرأى اختاره الإمام الرازى ويقاربه آراء ثلاثة لثلاثة من الأئمة المبرزين فى هذا المضمار هم الإمام أبو قتيبة والمحقق ابن الجزرى والقاضى ابن الطيب ولا خلاف بين آراء الثلاثة وبين رأى الإمام الرازى إلا فى طريق التتبع والاستقراء فاستقراؤه تام واستقروهم ناقص خصوصا أنهم أهملوا الوجه السابع بالمرة مع أنهم اعتبروه وصرحوا باعتباره ولكن لم يعدوه فى الوجوه وعدوا بدله وجها يدخل فيما عدوه .

وهو ابدال الكلمة بأخرى وهو داخل فى مطلق ابدال . وقد قال بهذا القول أيضا من المتأخرين العلامة الشيخ الخضرى الدمياطى والشيخ بخيت المطيعى رحمه الله .

وهذا المذهب يقتضى وجود هذه الأحرف فى المصاحف العثمانية وبقاءها الى اليوم وهو مختار الأئمة : فمصاحف عثمان قد اشتملت على ما يوافق رسم هذه الحروف بحيث لم تخل المصاحف فى مجموعها عن حرف منها إلا ما نسخ بالعرضة الأخيرة وهو بعض أنواع الزيادة والنقص : والتقديم والتأخير : والإبدال : أما باقى أنواع هذه الثلاثة والأربعة الأوجة الباقية فكلها موجودة إما فى جميع المصاحف وأما فى بعضها .

وأنت خبير بأن هذا القول مع وجاهته لاتظهر فى بعض وجوهه حكمة التيسير التى هى السر فى نزول القرآن على سبعة أحرف فتأمل .

وهاك جدولا يبين وجود هذه الأحرف فى المصاحف العثمانية .

الوجه	حالة المصاحف	المثال	ملاحظات
١) الاختلاف بالأفراد وغيره	موجود كله فى المصاحف	والذين هم لآماناتهم فى سورة المؤمنون والمعارج	الرسم محتمل للاختلاف
٢) الاختلاف بالمضى وغيره	« « «	فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا	« « «
٣) اختلاف وجوه الأعراب	« « «	ولا يضار كاتب ولا شهيد	« « «
٤) الاختلاف بالزيادة والنقص	١) بعضه موجود ٢) وبعضه غير موجود	فى التوبة وأعد لهم جنات تجرى تحتها ومن تحتها	توجد الزيادة فى المكى فقط
		يأخذ كل سفينة صالحة	نسخ بالعرضة الأخيرة
٥) الاختلاف بالتقديم والتأخير	١) بعضه موجود ٢) وبعضه غير موجود	فيقتلون ويقتلون	الرسم محتمل للاختلاف
		وجاءت سكرة الموت بالحق وجاءت سكرة الحق بالموت	نسخ الثانى بالعرضة الاخيرة
٦) الاختلاف بالإبدال	١) بعضه موجود	كيف ننشزها ـ ننشرها فتبينوا ـ فتثبتوا	الرسم محتمل للاختلاف
	٢) وبعضه غير موجود	فاسعوا الى ذكر الله فامضوا الى ذكر الله	نسخ الثانى بالعرضة الاخيرة
٧) اختلاف اللهجات	موجود كله فى المصاحف	وهل أتاك حديث موسى بالامالة وبعدمها	الرسم محتمل للاختلاف

القول الثانى : إن المراد بالأوجه اختلاف اللغات فى كلمة واحدة لمعنى واحد بأن يكون فى المعنى الواحد لغات فى التعبير عنه قد تبلغ السبعة من لغات العرب المشهورة مع عدم الاختلاف فى المعنى وذلك نحو وهلم وأقبل وتعال وعجل وأسرع وقصدى ونحوى ـ كلها لمعنى واحد بلغات مختلفة ـ وليس المراد أن كل معنى فى القرآن يعبر عنه بسبعة ألفاظ من سبع لغات ، بل المراد أن المعنى الذى تختلف لغات العرب فى التعبير عنه يعبر عنه بألفاظ على قدر هذه اللغات ـ فقد لا يكون هناك اختلاف أصلا فيعبر بلفظ واحد ـ وقد يكون اختلاف يقتضى التعبير بلفظين أو ثلاثة إلى سبعة فقط من مشهور لغات العرب وقت نزول القرآن ، وقد قيل هى لغات قريش وهذيل وثقيف وهوازن وكنانة وتميم واليمن .

وهذا القول هو ما اختاره القرطبي والطبرى والنيسابورى وهو منسوب إلى جمهور أهل الفقه والحديث وفى هذا القول يظهر وجه التيسير على الأمة فان فى تكليف جميع قبائل العرب أخذ القرآن بغير لغتهم وحملهم على النطق فى بدء نشأة الإسلام بما لم يعتادوا النطق به مشقة عظيمة وحرجا كثيرا كما يدل عليه قول الرسول فى بعض الروايات السابقة (وإن أمتى لا تطيق ذلك) فوسع الله لهم فى اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقا حتى كثر فيهم من يكتب . وعدل القرآن من لغتهم حيث نزل بلغة قريش التى لها السيادة الدينية والدنيوية ومرنوا على حفظ الألفاظ من لغة قريش وصاروا يؤثرونها على غيرها ولم تعد لهم ضرورة إلى الاستمرار على القراءة بما عدا حرف قريش فاختار الإمام عثمان ومعه أجلاء الصحابة أحد الأحرف السبعة وهو حرف قريش فكان ذلك إجماعا من الصحابة على اختيار واحد من أمور واجبة على التخيير وكان ذلك إجماعا أيضا منهم على ترك ما عدا هذا الحرف محافظة على وحدة الأمة فى قراءة القرآن ورفعا للمراء فيه .

ويستخلص من هذا القول أمور :

أولا : أن التخيير كان من الرسول للصحابة بناء على أن الكل نزل به جبريل عليه ليوسع على أمته ، فهو الذى أقرأ مرة أبيا بما قرأه عليه جبريل وأقرأ ابن مسعود مرة أخرى بما قرأه عليه جبريل أيضا ، وهكذا بالنسبة لقراءتى عمر بن الخطاب ، وهشام بن حكيم بدليل قوله فى كل من القراءتين هكذا أنزلت .

وليست الإباحة على معنى أن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، وإلا لذهب اعجاز القرآن ، وكان معرضا للتبديل فلا يتحقق قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ثانيا : إن هذه الأحرف ذهبت منها ستة وبقى حرف واحد هو حرف قريش لما أسلفنا من أن الأمة خيرت فى قراءة القرآن بأى الأحرف السبعة تيسيرا عليها ، فلما ذهب مقتضى التيسير ووجد الاختلاف والتنازع « كما سيأتى فى الكلام على جمع عثمان للقرآن » رأت الأمة التبات على حرف واحد وعدم القراءة بباقى الأحرف فجمع عثمان القرآن وبعث بالمصاحف الى الآفاق وأمر كل من عنده مصحف مخالف للصحف الذى جمعهم عليه أن يحرقه ، وتركوا القراءة بالأحرف الستة الأخرى حتى درست معالمها فلا سبيل لأحد اليوم الى القراءة بها ، وليس ذلك نسخا ولا رفعا من الله ولا تضييعا من الأمة .

وقد يقال إن هذا القول يقتضى حصر الأحرف السبعة فيما ذكر على حين أنه يرجع الى بعض نوع واحد من أنواع الاختلافات (وهو إبدال كلمة بأخرى) فأين الوجوه الأخرى الباقية الى اليوم فى القراءات المتواترة ، وهى المذكورة فى القول الأول — كما يقتضى أن الباقى الآن من الأحرف السبعة حرف واحد ، وأما الستة الباقية فلم يعد لها وجود مع أنها كانت موجودة فى عهد الرسول ، وقرر هو بقوله وفعله أنه لا يجوز لأحد أن يمنع أحدا من القراءة بحرف من السبعة وبين أن هذا الاختلاف رحمة من الله فكيف ساغ للصحابة وهم خير القرون أن يغلقوا باب الرحمة والتخفيف .

وأنت خبير بأن الذى قد يقال يمكن الجواب عنه بأدنى تأمل فتأمل(١) .

القول الثالث : أن المراد بالأحرف السبعة وجوه ترجع الى كيفية النطق بالتلاوة من أدغام واظهار وتفخيم وترقيق وامالة الخ .

وبالتأمل يرى أن هذه الأختلافات تزيد على سبعة عند الاستقراء ثم أنها هى نفس القراءات التى ترجع الى وجه واحد هو اختلاف اللهجات وكيفيات النطق وسيأتى أنها كلها فى حرف قريش فهى غير الأحرف السبعة التى ورد بها الحديث ومن هذا يمكن الجواب عن بعض ما قد قيل فى نقد القول الثانى فتأمل .

القول الرابع : أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب مفرقة فى القرآن بمعنى أن القرآن فى جملته لايخرج عن سبع لغات هى أفصح لغات العرب (لغة قريش ـ لغة هذيل ـ لغة ثقيف ـ لغة هوزان ـ لغة كنانة لغة تميم لغة اليمن) فبعض القرآن نزل بلغة قريش وبعضه نزل بلغة هذيل وهكذا وبعض هذه اللغات أسعد من بعض وأكثر نصيبا فى القرآن .

ويدفع هذا القول بأمور :

أولا ـ ان فى القرآن ألفاظا كثيرة من لغات قبائل أخرى غير السبعة ففيها من لغة حمير ومن لغة عمان ومن لغة بنى عبس ومن لغة أزد شنوءة ومن لغة جرهم وغيرهم .

ثانيا ـ أنه لايتحقق فى هذا القول حكمة التيسير الملحوظة فى نزول

---

(١) فيجاب عن الأول بأن الباقى الى اليوم قراءات لا وجوه وعن الثانى بأن الإذن بالقراءة بجميع الحروف لضرورة وقد زالت .

القرآن على سبعة أحرف ـ لأن هـذا المذهب يستلزم أن كل قارىء لا يقرأ إلا ما نزل بلغته هو .

ثالثا — ثم هو بعد مخالف للاختلافات التى صورتها لنا الروايات السابقة بين الصحابة ـ فأن المقروء فيها كان فى موضع واحد وقد صوب الرسول قراءة كل

القول الخامس : إن المراد بالأحرف السبعة سبعة أصناف من الاختلافات فى القرآن غير ما تقدم فى الاقوال السابقة وقد اختلفوا فى تعيين هذه الاختلافات فمن أصحاب هـذا القول من يعينها بالأمر والنهى والحلال والحرام والمحكم والمتشابه والأمثال ـ ومنهم من يعينها بالوعد والوعيد والحلال والحرام والموعظ والأمثال والاحتجاج .

ومنهم من يعينها بالمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والخصوص والعموم والقصص ومنهم من يعينها بغير ذلك حتى اكمل بعضهم عدة الأقوال تبعا لاختلاف تعيين السبعة من هذا الطراز الى ثلاثين قولا .

ويرد على هذا القول بجميع توجيهاته بأمور :

الأول — ان الأنواع التى من هـذا القبيل لا يتأتى فيها اختلاف بسبب القراءة ـ وسياق الأحاديث التى جاءت فى نزول القرآن على سبعة أحرف لاينطبق على هـذه الأنواع من الاختلافات بل هو صريح فى أن الاختلاف كان بسبب القراءة فيتعين أن يكون مرجعه التلفظ لا تلك الأصناف

ثانيا — أن التيسير والتوسعة الملحوظة للشارع فى نزول القـرآن على سبعة أحرف لاتتحقق فى هذه الأنواع من الاختلافات

والى هنا نترك هذا الموضوع مكتفين بما لخصناه فقد طال الكلام فيه وهو جـدير بأن يطول الكلام فيـه وقد أفرده كثير من المؤلفين بالتدوين ووضعت فيه رسائل ولما يستقر الكلام فيه على رأى قاطع والله الموفق والمعين

ز ـ المكى والمدنى ووجوه الفرق بينهما

نكرر هنا ما قدمناه فى أول ما نزل وآخر مانزل وفى أسباب النزول من أنه ليس الغرض من ذكر هذه الموضوعات استقصاء آيات القرآن الحكيم تطبيقاً عليها لأنه محاولة كبيرة أفردت بالتأليف ـ ولكننا نقتصر هنا كما اقتصرنا هناك على القواعد العامة فنتكلم فى موضوع المكى والمدنى على . (١) الاصطلاحات فى المكى والمدنى . (٢) وفائدة العلم به . (٣) والطريق الموصل إليه . (٤) والضوابط التى يعرف بها . (٥) والسور المكية والمدنية .

أما الإصطلاحات : فى المكى والمدنى فهى ثلاثة الأول اعتبار مكان النزول ـ وحينئذ يعرف المكى بأنه ما نزل بمكة والمدنى بأنه مانزل بالمدينة ـ ويدخل فى المكى ضواحى مكة كمنى وعرفات والحديبية ـ ويدخل فى المدنى ضواحى المدينة كبدر وأحد وقباء وعلى هذا تثبت الواسطة فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لايسمى مكياً ولا مدنياً فلا تكون القسمة ثنائية ولا حاصرة ويلزم أيضاً أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يسمى مكياً . والثانى ـ اعتبار المخاطب ـ وحينئذ يعرف المكى بأنه ما وقع خطابا لأهل مكة والمدنى بأنه ما وقع خطابا لأهل المدينة وعليه يحمل قول من قال ما كان فى القرآن من يأيها الناس فهو مكى وما كان فيه من يأيها الذين آمنوا فهو مدنى ـ وبالتأمل يرى أن هذا الضابط غير مطرد فسورة البقرة وسورة النساء مدنيتان وفيهما يأيها الناس (والحق أن يأيها الذين آمنوا مدنى ويأيها الناس مشترك) ـ ثم أن هذا ليس بضابط لأن أكثر القرآن لم يتصدر بأحد النداءين كما يعرف ذلك بأدنى تأمل . الثالث اعتبار زمن النزول وهذا هو القول الوجيه ـ وحينئذ يعرف المكى بأنه مانزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة ـ والمدنى بأنه مانزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة فمثل قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى الآية) مدنى مع أنه نزل بمكة عام الفتح ومثله مانزل بعد الهجرة بعرفة أو ببدر أو بتبوك ـ وأما مانزل قبل الهجرة أو فى سفر الهجرة فمكى ـ فيكون هذا الضابط حاصراً مطرداً :

وأما فائدة العلم به فتمييز الناسخ من المنسوخ ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرج الأحكام على ما قدمنا وعلى ما ستعرفه فى التنبيه الثانى فانتظره على أن الكلام فى المكى والمدنى وأمثاله يعطينا فكرة عامة عن عناية المسلمين الأولين بالقرآن الكريم من كل نواحيه حتى وصل إلينا سالما من التحريف كما تقدم .

وأما طريق معرفته ـ فهو النقل الصحيح عن الصحابة والتابعين ـ ولم يرد فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم قول ـ وممن برز فى هذا الميدان سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد قال (والله الذى لا إله غيره مانزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ولو أعلم أن أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه [١] .

وأما الضوابط التى يعرف بها المكى والمدنى ـ فهى علامات لما ورد به السمع عن طريق الصحابة والتابعين ـ فمن ضوابط المكى :

(١) كل سورة فيها لفظ كلا ـ وهى خمس عشرة سورة ذكر فيها لفظ كلا ثلاثا وثلاثين مرة كلها فى النصف الأخير من القرآن قال الديرينى :

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ولم تأت فى القرآن فى نصفه الأعلى

(٢) كل سورة فيها سجدة .

(٣) كل سورة مفتتحة بحروف التهجى (فواتح السور) وذلك عدا البقرة وآل عمران وفى الرعد خلاف .

(٤) كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة ما عدا البقرة .

(٥) كل سورة فيها قصة آدم وإبليس سوى البقرة أيضا .

---

(١) ولا يقدح فى ذلك ما سيأتى فى جمع القرآن من أن مصحف ابن مسعود كان خاليا من المعوذتين لأن ذلك كان قبل أن يعلم قرآنيتهما .

ومن ضوابط المدنى :

(١) كل سورة فيها الأذن بالجهاد وبيان أحكامه .

(٢) كل سورة فيها الحدود والفرائض .

(٣) كل سورة فيها ذكر المنافقين إلا العنكبوت فآياتها الاحدى عشرة الأولى مدنية وهي التى ذكر فيها المنافقون وباقيها . مكى .

وأما تعداد السوار المكية والمدنية - فأحسن ماقيل فيه نقلا عن أبي الحسن الحصار هو ان المدنى باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكى باتفاق فالمتفق على مدنيته (البقرة - آل عمران - النساء - المائدة - الانفال - التوبة - النور - الاحزاب - محمد - الفتح - الحجرات - الحديد - المجادلة - الحشر - الممتحنة - الجمعة - المنافقون - الطلاق - التحريم - النصر) .

والمختلف فيه (الفاتحة - الرعد - الرحمن - الصف - التغابن - التطفيف - القدر - لم يكن - إذا زلزلت - الاخلاص - المعوذتين) .

والمتفق على مكيته الباقى من سور القرآن وهو اثنتان وثمانون سورة فتبلغ العدة مائة وأربع عشرة سورة هى كل القرآن .

تنبيهان - الأول قد تكون السورة كلها مكية أو مدنية ما عدا آيات فيها فيكون وصفها بأنها مكية أو مدنية تبعاً لما يغلب فيها أو تبعاً لفاتحتها وقد بذل العلماء همة جبارة فى استقصاء حال ما نزل من السور والآيات وتجد ذلك واضحا فى بعض المصاحف فيقال سورة كذا مكية إلا كذا فانها مدنية ، ويقال سورة كذا مدنية إلا كذا فإنها مكية - وذلك برهان آخر على عناية المسلمين بالقرآن وتوثيقه فجزاهم الله خيراً .

الثانى - من خواص القسم المكى :

(١) العناية بالدعوة إلى أصول الدين الاعتقادية من الإلهيات والوحى والرسالة والبعث والجزاء وإثبات ذلك بالأدلة الكونية والعقلية ومحاجة المشركين وإبطال شبههم .

(٢) التحدث عن عادات المشركين القبيحة كالقتل وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل مال الأيتام - وشرح أصول التشريع العامة وأصول الآداب والأخلاق وبيان حقوق الاجتماع .

(٣) قص أنباء الرسل وأحوال الأمم السابقة وفيها أبلغ المواعظ وأنفع العبر وتقرير سنته تعالى الكونية فى أهل الكفر والطغيان وهى أهلاكهم ونصر أهل الفضل والإيمان .

(٤) الإيجاز فى خطاب أهل مكة — ولذا كانت قصار المفصل مكية إلا قليلا منها وكانت صغيرة الآيات وكلها نذر قارعة ومواعظ نافعة وزواجر رادعة وعبر جامعة تصخ آذانهم وتعقل بيانهم وهم أهل البلاغة وفرسان الكلام .

ومن خواص القسم المدنى :

(١) بيان قواعد التشريع التفصيلية والأحكام العمليـــة فى العبادات والمعاملات .

(٢) دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإسلام ومناقشة عقائدهم الفاسدة وبيان جنايتهم على الحق وتحريفهم كتب الله ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ .

(٣) كشف حال المنافقين وهتك أستارهم وهم أخطر على الدين من المجاهرين .

(٤) طول أكثر سوره وآياته والأطناب أنسب لأهل المدينة لتحقيق ما تقدم من الخواص وأوفق لحالهم التى يناسبها الشرح والإيضاح .

ح — ملحق الموضوع

أما بعد فانه يتصل بموضوع نزول القرآن مباحث أخرى رأينا إثباتها عقبه لشدة اتصالها به وهى .

(١) الكلام على الوحى .

(٢) رد الشبه الواردة على القرآن من حيث أنه وحى .

(٣) رد الشبه الواردة على القرآن من حيث نزوله على سبعة أحرف .

(٤) رد الشبه الواردة على القرآن من حيث أن فيه المكى والمدنى .

(١) الكلام على الوحى

الوحى لغة الاعلام بالشىء سراً واصطلاحا بالمعنى الحاصل بالمصدر عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة وبالمعنى المصدرى الاعلام السرى الصادر من الله تعالى إلى من اصطفاهم من عباده وهم الأنبياء بطريقة غير معتادة للبشر إما مكالمة أو إلهاما أو بوساطة الملك ويسمى هذا النوع الاخير بالوحى الجلى وهو أشهر الأنواع وأقواها وأكثرها وقوعا — وهو الذى يعنينا فى هـذا المقام لانه هو الذى نزل به القرآن (نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) الشعراء وقد كان نزول جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنواع شتى فكان يراه تارة على صورته الملكية وهذا قليل جداً — وتارة على صورة إنسان وقد لا يراه أصلا وإنما يكون لقدومه صوت ضعيف أو شديد يسمعه الحاضرون كدوى النحل عند وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنهم لا يفهمون كلاما — أما هو صلى الله عليه وسلم فيعلم علماً ضرورياً أن هذا هو وحى الله دون لبس ولا خفاء فإذا انجلى عنه الوحى وجد ما أوحى إليه به حاضراً فى ذاكرته منتقشاً فى حافظته وهذه هى خاصية الوحى بالمعنى الشرعى فيختص بالأنبياء ولا يلتبس بما يشبه بعض أنواعه من الرؤيا الصادقة وبعض الإلهامات فإنهما لا يختصان بالأنبياء بل تكون الرؤيا الصادقة لبعض الصالحين والإلهام لبعض الحيوانات .

أما إمكان حصول الوحى : فمداره على أمرين الأول استعداد نفس النبى صلى الله عليه وسلم لتلقى الوحى — الثانى وجود ملائكة تبلغ الوحى — أما الأول فلا مانع منه بعد أن ثبت أن مراتب الإدراك فى البشر متفاوتة وأن نفس النبى صلى الله عليه وسلم صفت بأصل فطرتها وخصها الله بكمالات هيأتها لعلم حقائق الأشياء من غير أن تتقيد بطريق مألوف فتفهم صوت الملك وتقوى على مشاهدة صورته الأصلية أما الثانى فقد دل عليه الكتاب والسنة الصحيحة .

ويقرب أمر الوحى مما لقاً أمور :

منها التنويم المغناطيسى الذى أثبت أن للإنسان روحاً مستقلة عن الجسم لا تنحل بانحلاله وأنه يمكن لمخلوق قوى أن يؤثر فى نفس مخلوق آخر ضعيف ما يشاء من المعلومات — فالوحى الجلى لا يخرج عن أن يكون اتصالا للملك الروحانى بالرسول صلى الله عليه وسلم حيث ينسلخ عن حالته العادية ويكون روحانياً أيضاً فينطبع ما يلقيه الملك فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم حتى إذا انجلى عنه الوحى وجد ما تلقاه ماثلا فى نفسه مكتوباً فى صفحة فؤاده .

ومنها المخترعات العجيبة من مسرة وبرق سلكى ولاسلكى ومذياع ونحوها إذ بها أمكن أن يخاطب البعيد ويتحدث إليه حديث الحاضر .

ومنها إلهام الحيوانات حيث أتت بالمدهشات كالنمل والنحل بإيحاء من الله ومنها تصبئة الاسطوانات والأشرطة المركونية بالأصوات فلا يستبعد على القادر الحكيم أن يملأ صدور من اصطفاه من عباده بكلام مقدس يهدى به خلقه .

وأما وقوع الوحى وحصول الرسالة فدليله يختلف بالنسبة للشاهد للأنبياء والغائب عنهم فالشاهد لهم دليله تلك المعجزات التى شاهدها على أيديهم وأما الغائب عنهم فدليله التواتر المفيد اليقين — وقد أخبر الصادق المصدوق بوقوع الوحى (حديث البخارى فى أول باب كيف كان بدأ الوحى) — كما تواتر

مجيء القرآن بواسطة الوحي (نزل به الروح الأمين) . قل نزله روح القدس من ربك بالحق) - فكان حقا لا لبس فيه ولا مراء .

(٢) الشبه الواردة على القرآن من حيث أنه وحي

قال خصوم القرآن في القرآن أنه جاء غير مرتب ولا منظم بل مزجت أغراضه فيبعد أن يكون وحيا — ولم لا يكون من كلام محمد وقد كان الفرد الكامل في البيان فكان مخترعه عجيباً ولا يعدو قرآنه أن يكون من المخترعات التي يظهرها العلم كل يوم - وإنما نسبه إلى الله ليستمد قدسيته من هذه النسبة .

والجواب : أن مزج أغراضه ومخالفته لأنظمة الكتب المؤلفة مع بلوغه نهاية البلاغة ووصوله إلى درجة الإعجاز دليل مادي على أنه ليس من عمل البشر فالقرآن بمجموع إشراقات من الوحي الإلهي مزج مزجا طريفاً أكسب القارئ لذة والسامع شوقا والمستفيد أنواعا متعددة من الفوائد في مجلس واحد — فكل سورة منه روضة يانعة مختلفة الثمرات ، وما ئدة حافلة بشتى أنواع الملذات ، ولو كان من عند غير الله لجلس صاحبه إليه لينمقه لأنه لو تركه مدشوشا ممزوجا لكان مبتذلا ممجوجا — على أن هذا المزج الرباني قد أثبت البلغاء أن بين سوره وآيه مناسبات بارعة وارتباطات محكمة ، وائتلافا بديعاً انتهى إلى درجة الإعجاز ، ولا يعيب القرآن جهل كثير من الناس بأسراره (فقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد) .

وقد شهد له الاخصائيون من حذاق اللغة العربية في أزهى عصور التوافر عليها والتفنن فيها أنه كتاب فاق كل الكتب وكلام بز سائر الكلام .

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

وأما أن القرآن من كلام محمد الخ الشبهة — فيرده أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بكلامين — القرآن الكريم والحديث النبوي — ولكل أسلوب خاص وبينهما فرق كبير مثل ما بين السماء والأرض ، وهو الفرق بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق — وقد أدرك هذا الفرق العرب الخلص وقطعوا بوجود

المميزات الفائقة وشهد أعداء القرآن الذين تحداهم الرسول بالقرآن بذلك — فلو كان الرسول مصدر القرآن لعرفوه بما أوتوا من ملكة النقد ولأمكنهم أن يجاروه متفرقين أو مجتمعين ولو فى شىء قليل منه .

ثم كيف ينسبه إلى غيره مع أن فخره فى نسبته إلى نفسه لو كان هو مصدره فيستطيع أن يدعى به ما هو فوق النبوة فيكون مقدساً أكثر من قداسته بنسبة كلامه إلى غيره .

على أن فى القرآن الكريم من المضامين العلمية والأنباء الغيبية ما يشهد بأنه ليس كلام رجل فذ فى البيان ، ولا متفوق فى اللسان ، كما أن فيه دليلا مادياً على أن القرآن ليس كلامه وذلك هو أنواع العتاب الموجه له بما نحس لطفه تارة وعنفه أخرى ، إقرأ إن شئت من سورة الإسراء : (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره) إلى قوله : (أذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) ومن سورة التوبة : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ومن سورة الأنفال (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض الآيتين) ومن سورة الاحزاب (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه) الآية

فكيف يكون القرآن كلامه ويسجل على نفسه ذلك وما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً .

ملاحظة . فإذا قيل إن عادة البلغاء أن يكون للواحد منهم كلامان متباينان يجلس إلى أحدهما فينمقه ويهذبه ويرسل الآخر إرسالا فلم لا يكون الرسول كذلك ونسب الكلام المنمق إلى الله والكلام المرسل لنفسه — قلنا أن التفرقة بين الكلامين على هذا الوجه لم تظهر إلا بعد أن فسد اللسان العربى — أما العرب الخلص الذين ظهر فيهم النبى صلى الله عليه وسلم فلم يكن من عادتهم اختلاف الكلام على الوجهين المذكورين بل كانت عادتهم إرسال الكلام كله إرسالا ، ومن تعمد منهم التنميق نزل كلامه بمقدار ما يظن أنه صعد به . وكان العرب يعافون من الكلام ما ظهر فيه آثار الصنعة وكان

النبي صلى الله عليه وسلم أبعد العرب عن هذا التكلف بل نهى عنه وأنكره على أن الواقع الملموس أن كثيراً من القرآن نزل مفاجأة على غير انتظار ومنه ما نزل بعد انتظار وأسلوبه فى الحالين واحد (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

(٣) الشبه الواردة على القرآن من حيث نزوله على سبعة أحرف .

قالوا إن الاختلاف فى القرآن ثابت بأحاديث نزوله على سبعة أحرف مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف فيه بآية (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

والجواب : إن الاختلاف الذى تثبته الأحاديث غير الاختلاف الذى ينفيه القرآن — فالاختلاف بمعنى التنويع فى طرق الأداء هو ما أثبتته الأحاديث وهو لا يعدو النطق بألفاظه فى دائرة محدودة وبشرط التلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أما الاختلاف بمعنى التناقض والتدافع فهو الذى نفاه القرآن فالشبهة لا أساس لها .

وقالوا : إن وجود الأوجه يوقع فى شك من القرآن لأنه اختلاف .

والجواب : أن اختلاف القراءة لا يوقع فى شك ما دام الكل نازلا من عند الله ولا تخيير للقارىء فى أن يأتى من تلقاء نفسه باللفظ أو ما يرادفه يدل لذلك ما ورد فى الأحاديث من قوله صلى الله عليه وسلم لكل من المتنازعين المختلفين فى القراءة (هكذا أنزلت) وقول كل من المختلفين لصاحبه (اقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقول الله لرسوله (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) يونس .

(٤) الشبه الواردة على القرآن
من حيث أن فيه المكي والمدني

قالوا : نرى في القرآن أسلوبين متعارضين — فالأسلوب المكى يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة — والأسلوب المدني عليه مسحة الثقافة والاستنارة فالأول فيه العنف والشدة والقسوة والحدة والوعيد والتهديد والثانى على العكس من ذلك — وغرضهم من هذا أن القرآن ليس كلام الله إنما هو كلام محمد الذى تأثر بالبيئة فكان كلامه مع أهل مكة خشنا كطباعهم وكلامهم وكان كلامه مع أهل المدينة لينا سهلا نتيجة للظروف التى أخذها من أهل الكتاب فى المدينة وضربوا مثلا للقسم المكى بسورة المسد وسورة التكاثر وسورة العصر .

والجواب أولا : بمنع اختصاص القسم المكى بما ذكر من العنف الخ بل أن فى القسم المدنى شدة وعنفا أيضا اقرأ قوله تعالى فى سورة البقرة المدنية (فأن لم تفعلوا ولن تفعلوا الآية) وفيها أيضا (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس الآية) وفيها أيضا (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) وفى آل عمران المدنية (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا الثلاث الآيات) .

وثانيا بمنع اختصاص القسم المدنى باللين ففى القسم المكى آيات سماحة وعفو اقرأ إن شئت قوله تعالى فى سورة فصلت المكية (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا الثلاث الآيات) وفى سورة الشورى المكية (فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا الآيات) وفى سورة الحجر المكية (ولقد آتيناك سبعا من المثاني الخ السورة) .

وثالثاً : بتسليم أن القسم المكى شديد والقسم المدنى لين . ونقول أن القرآن كله قام على رعاية حال المخاطبين فتارة يشتد وتارة يلين تبعاً لما يقتضيه حالهم وقد كان أهل مكة قوما مردوا على العداوة والبغضاء وآذوا رسول الله وأصحابه وكادوا

لهم حتى انتهى بهم الأمر إلى الهجرة إلى المدينة داو الأنصار الذين آووا رسول الله وأصحابه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه . فالحكمة الإلهية اقتضت أن يكون خطاب هؤلاء الكفرة الفجرة أهل مكة بالشدة والعنف لقاء موقفهم العدائى نحو الدعوة الإسلام كما اقتضت أن يكون خطاب أهل المدينة باللين والسماحة لقاء ما قدموا للدعوة الدينية من خير ولو عكس الأمر أو اتحد الخطاب لم يكن بليغا .

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلى

مضر كوضع السيف فى موضع الندا

ومن ذا الذى يعرف كرم الناس ولؤمهم ويحيط بنواياهم وطبائعهم إلا علام الغيوب فاطر السموات والأرض .

وقالو : إن قصر السور والآيات المكية وطول السور والآيات المدنية دليل على أن القرآن تأثر بالبيئة فلما كان محمد أميا بين الأميين جاءت سور القسم المكى قصيرة . ولما وجد فى المدينة بين مثقفين جاءت سور القسم المدنى طويلة . وغرضهم من هذا هو غرضهم من الشبهة الأولى .

والجواب كالجواب السابق : أولا بمنع اختصاص المكى بالقصر والمدنى بالطول بل فى المكى سور طويلة مثل سورة الأنعام وفى المدنى سور قصيرة مثل سورة النصر — وإن أرادوا الغالب أجبنا بالتسليم ثم نقول أن القصر مظهر الإيجاز وهو ما يناسب القرشيين فى مكة وهم فى الذؤابة من قبائل العرب فصاحة وبلاغة ، وأما أهل المدينة فهم حلى استنارتهم لم يبلغوا شأو القرشيين فناسبهم التطويل وبسط الكلام وقد تقدم ذلك فى بيان خصائص المكى والمدنى فارجع إليه إن شئت .

وقالوا : إن القسم المكى خلا من التشريع والاحكام لانه كلام من نشأ بين الأميين الذين لا عهد لهم بالعلوم والمعارف العالية فلما حل بالمدينة تعلم من أهل الكتاب المثقفين فجاء قرآنه مليئا بالعلوم والمعارف العالية .

والجواب : أولا يمنع خلو القسم المكى من التشريع والأحكام بل فيه آيات جمعت مقاصد الدين اقرأ إن شئت قوله تعالى فى سورة الأنعام المكية (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم إلى تمام ثلاث أيات بعدها) وقد جمعت الوصايا العشر لمقاصد الدين الخمسة .

وثانياً : بأن السياسة الحكيمة فى تربية الشعوب وهداية الخلق تكون بطريق التدرج وتقديم الأهم على المهم - فعنى القرآن فى مكة بإصلاح القلوب وتطهيرها من الشرك والوثنية وتقويمها بعقائد الإيمان والتوحيد - حتى إذا تقررت هذه العقائد فطمهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق ثم دلهم على أصول الآداب وفضائل العادات ثم كلفهم من أمهات العبادات ما لا بد منه .

ولما هاجر إلى المدينة كان القوم قد تهيأت نفوسهم للترقى والكمال فجاءهم القرآن بتفاصيل التشريع والأحكام ودقائق الإسلام .

وبعد هذا نقول للملاحدة كيف تعلم النبى من أهل الكتاب مع أنه تحداهم فعجزوا ولم يستطيعوا مجاراة القرآن فى أسلوبه فكيف يسبقهم وهو متعلم منهم ثم كيف لم يدعوا هم النبوة وهم أساتذته ثم كيف يتعلم منهم وقد نعى عليهم كفرهم وفسقهم وشنع بهم ولعنهم فى غير موضع وأثبت كذبهم فى النقل عن كتبهم وبين تحريفهم الكلم عن مواضعه وقال لهم فى غير مواربة ولا خوف (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) وكانوا كلما جاءتهم آية وقفوا مشدوهين وكلما تحداهم القرآن ألقموا حجرا فكيف يكون لهم فضل التعليم ولهم هذه المواقف المخزية وكيف يأخذ المصيب من المخطىء وهل يستمد الحى روحه من الميت وهلا كان أساتذته يستطيعون أن يجاروه ولو فى سورة قصيرة : إن هذا الذى يقوله الملاحدة إلا اختلاق لم يجرؤ عليه كفار قريش وأهل الكتاب أنفسهم وهم الذين قاوموا الدعوة إبان ظهورها وقد كانوا حريصين على تلبس الشبه ولكن لم تطاوعهم عقولهم أن يصطنعوا بما جاء به هؤلاء المبشرون والملاحدة بعد القرون المتلاحقة .

وقالوا — إن القسم المكى قد كثر فيه القسم بالأشياء المحسوسة التى تناسب مدارك أهل مكة وأما القسم المدنى فقد خلا من ذلك لعلو مدارك أهل المدينة إلى ما فوق المحسوسات — وغرضهم إن القرآن كلام محمد تأثر بالبيئة .

والجواب — أولا بمنع أن أهل مكة لا يدركون إلا المحسوسات : كيف وهم أرقى العرب فصاحة وبلاغة وقد طولبوا الإيمان بالله وبما غاب عنهم من اليوم الآخر وما فيه — على أن القسم فى المكى لم يختص بالمحسوسات بل كان بالمعنويات أيضا فقد أقسم الله بالقرآن فى غير موضع وأقسم بنفس الانسان .

وثانيا — بأن القسم المكى إنما اشتمل على القسم بالمحسوسات لأن أهل مكة دعوا أول ما دعوا إلى أصول الإيمان وفى القسم بهذه الأشياء العظيمة تنبيه على أنها آيات الله فى الآفاق ودلائل قدرته وعظمته — وتنبيه على ما فى هذه الأشياء المحسوسة من المنافع الجليلة لهم .

وقالوا — إن القسم المكى قد اشتمل على ألفاظ غير ظاهرة المعنى وهى فواتح السور وذلك ينافى كون القرآن هدى الناس وبينات .

والجواب — أولا بمنع أن هذه الفواتح ليس لها معنى لأن أكثر العلماء على أن فاتحة كل سورة اسم لهذه السورة وقد وقع الاشتراك اللفظى فى بعض هذه الأعلام — وذلك معهود فى اللغة العربية ولو كانت غير مفهمة لأنكر العرب ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم ولم يحصل ذلك مع حرصهم على وجود هفوة يشهرون بها وقد تحداهم فعجزوا وسكتوا فدل ذلك على أنهم فهموا ولم يستطيعوا المعارضة .

وثانيا — أن وجود هذه الفواتح فى القرآن على فرض أنها غير مفهمة يجعلها من المتشابه وقد ذكر العلماء لوجود المتشابه فى القرآن فوائد جليلة تدخل فى دائرة الإيمان ولا تنافى هداية القرآن .

وإلى هنا رأينا الانتقال الى الموضوع الثالث فقد طال الكلام فى الموضوع الثانى وهو حقيق بهذا الطول لأنه كما قدمنا أساس جميع الموضوعات التى تأتى بعده فإلى الموضوع الثالث .

الموضوع الثالث من المنهاج

جمع القرآن الكريم

مباحثه

(ا) جمع القرآن الكريم بمعنى حفظه فى الصدور .

(ب) « « « « كتابته وتدوينه.

(ج) الرد على ما يثار حول جمع القرآن من شبه .

(ا) جمع القرآن بمعنى حفظه

يطلق جمع القرآن على معنيين ورد بهما الروايات ـ الأول حفظه فى الصدور والثانى تدوينه وكتابته — وقد كان الجمع بمعنى الحفظ هو المعول عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانت بعثته فى الاميين — ومن خاصة الامى أن يعول على حافظته فيما يهمه — وكانت همته صلى الله عليه وسلم منصرفة الى أن يحفظ القرآن ويستظهره ، ثم يقرأه على الناس ليبلغ به رسالة ربه حتى لقد بلغ من حرصه على حفظه أنه كان يعجل به فيحرك لسانه حينما ينزل عليه جبريل به فوعده الله تعالى أن يحقق له حفظه وقراءته جميعاً ، وأنزل عليه : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) القيامة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقرأه على أمته على مكث ليسهل حفظه ووعيه ، وكان جبريل يعارضه القرآن فى كل عام مرة ، وفى العام الاخير من حياته السعيدة عارضه مرتين : قالت عائشة وحفصة رضى الله عنهما

(سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن جبريل كان يعارضنى القرآن فى كل سنة مرة وأنه عارضنى العام مرتين ولا أراه الا حضر أجلى).

وأما الصحابة رضى الله عنهم فكانوا يتنافسون فى حفظ القرآن ويتسابقون الى دراسته وتفهمه لأنه كان عندهم فى المحل الأول من عنايتهم: وكانوا يتفاضلون فيما بينهم على مقدار عنايتهم بحفظه — ولقد بلغ من عنايتهم بالقرآن أنهم كانوا يجعلون مهر الزوجة تحفيظها سورة من القرآن — وكانوا يقومون به الليل ويتلونه فى الأسحار حتى كان المار ببيوتهم فى غسق الليل يسمع دويا كدوى النحل بالقرآن وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ينمى فيهم هذه الروح الطيبة فيبلغهم ما أنزل اليه أولا فأولا ويفاضل بينهم به ويرسل البعوث إلى الجهات لتعليم القرآن — فلا غرو أن يكون حفاظ القرآن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرين من المهاجرين والأنصار جميعا — ومن مشاهير المهاجرين فى الحفظ الخلفاء الأربعة وطلحة وابن مسعود وحذيفة وسالم مولى أبى حذيفة وأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبد الله ومعاوية وابن الزبير وعائشة وحفصة وأم سلمة — ومن مشاهير الأنصار فى الحفظ أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد ابن ثابت وأبو الدرداء وأنس بن مالك وأبو زيد وغيرهم. رضى الله عن المهاجرين والأنصار ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين.

أما ماورد عن أنس رضى الله عنه مما ظاهره حصر الحفظة على عهد رسول الله ﷺ فى أربعة فمؤول إما بحمل الحصر على الإضافى لا الحقيقى أى من الأنصار وإما بغير ذلك من التأويلات وبعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم أتم حفظ القرآن آلاف مؤلفة من الصحابة، وقد اشتهر بأقراء القرآن من بينهم سبعة هم عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأبى كعب وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود وأبو موسى الأشعرى — وكان طريق الرواية والاقراء هى الحفظ كما كان الحال فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهذه هى أشرف خاصة للأمة المحمدية كما جاء فى وصفها (أناجيلهم صدورهم) بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتابهم ولا يقرءونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب.

(ب) جمع القرآن بمعنى كتابته

كتب القرآن فى الصدر الأول من الإسلام ثلاث مرات لكل مرة منها ميزتها ومبرراتها .

الأول : فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

الثانية : فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه .

الثالثة : على عهد عثمان رضى الله عنه .

(١) الجمع الأول فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم

قلنا فيما سبق أن المعول عليه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان هو حفظ القرآن فى الصدور على عادة العرب من جعل صدورهم دواوين أشعارهم وأنسابهم . ولكن العناية بالقرآن اقتضت أن ينضم إلى الحفظ الكتابة وأن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه موقف خاص بالنسبة إلى القرآن فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه عن كتابته [بمقدار ما تسمح به وسائل الكتابة] ورأوا أن الاعتماد على الحفظ غير كاف لأنه معرض للزوال بالنسيان أو الموت ، وقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كتاباً للوحى - فكان كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته وذلك زيادة فى التوثيق والضبط كما قدمنا - وكان يدلهم على موضع الآية من سورتها وموضع السورة من أختها فيقول اجعلوا هذه الآية فى سورة كذا بعد آية كذا ، واجعلوا هذه السورة بجانب سورة كذا - وعلى هذا ظاهرت الكتابة الحفظ وصار للقرآن مصدران يرجع إليهما عند جمعه فى مصحف واحد كما سيأتى أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى وكان كتاب الوحى من خيرة الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان

وعلى ومعاوية وأبى وزيد وغيرهم من الاجلاء وكانوا يكتبون فى العسب [١] واللخاف [٢] والرقاع [٣] والعظام وقطع الجلد - ثم يوضع المكتوب فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما كان الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم على هذا الوجه أيضاً متفرقاً غير مجموع فى مصحف واحد ولم يستوعب كتابته إلا قليل منهم . ولكنه يعتبر مكتوباً كله عند مجموعهم .

ولم ينقض عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى والقرآن مكتوب كله لكن على هذا النمط مدشوتاً غير مرتب السور ولا الآيات وإن كان الرسول قد أرشدهم فى القراءة إلى موضع كل سورة وكل آية حسب توقيف جبريل ومعارضته القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت كتابة القرآن مشتملة على الأحرف السبعة التى أنزل عليها القرآن كما كان فيها منسوخ التلاوة وبعض ما هو ثابت بخبر الواحد .

وإنما لم يجمع القرآن فى مصحف عام لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان بصدد أن ينزل عليه قرآن تباعا وبصدد أن ينزل عليه وحى بنسخ ما شاء الله نسخ تلاوته ولم يوجد فى عهده دواعى كتابته فى مصحف لأن المسلمين بخير والقراء كثيرون والفتنة مأمونة وأدوات الكتابة غير ميسورة ولم يكن نزول القرآن على ترتيب قراءته - كل هذا من دواعى عدم تدوين القرآن فى مصحف واحد - فلما جد من الأحداث ما استدعى تدوينه فى مصحف واحد جمع فى مصحف واحد وهو ما استذكره فى الجمع الثانى وإليك حديثه .

---

(١) بضمتين جمع عسيب وهو جريد النخل .

(٢) بكسر اللام جمع لخفة بفتحها الحجارة الرقيقة .

(٣) ما يكتب فيه من ورق ونحوه .

(٢) الجمع الثانى فى عهد أبى بكر الصديق

واجهت سيدنا أبا بكر رضى الله عنه أحداث عظام أول خلافته ومنها موقعة اليمامة التى استشهد فيها كثير من قراء الصحابة الحافظين وقد هال ذلك عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فدخل على أبى بكر رضى الله عنه واقترح عليه أن يكتب القرآن خشية الضياع فتردد أبو بكر أولا ولكنه ما لبث أن اقتنع بالفكرة وتجلى له وجه المصلحة وشرح الله صدره وعرف أن جمع القرآن ليس من محدثات الأمور بل هو مستمد من القواعد التى وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بتشريع كتابته فى عهده واتخاذ كتاب الوحى ووضع ما كتبوه فى بيته — فندب أبو بكر لتنفيذ الفكرة رجلا من خيرة الصحابة هو زيد بن ثابت لأنه جمع من المؤهلات لهذه المهمة ما لم يجمع لغيره من الصحابة — فقد كان من حفاظ القرآن ومن كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وممن شهد العرضة الأخيرة للقرآن — وكان معروفا بخصوبة العقل وكمال الخلق وشدة الورع وعظم الأمانة — ووافق عمر بن الخطاب وهو صاحب الفكرة على ندب هذا الصحابى الجليل لهذه المهمة — ولما عرض أبو بكر على زيد بن ثابت كتابة القرآن فى مصحف تردد أول الأمر كما تردد أبو بكر أول الأمر — ولكن أبا بكر ما زال به حتى تبين له هو الآخر وجه المصلحة فى ذلك فاطمأن واقتنع وشرع بكتب القرآن وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ويعاونونه فى هذا العمل الجليل حتى تم للمسلمين ما أراده الله لهم من الخير العميم .

روى البخارى فى صحيحه أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال (أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضى الله عنه إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر

يجمع القرآن . قلت لعمر كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ — قال عمر هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر — قال زيد قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه — فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن — قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ — قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر — فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم الخ السورة » فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر) اهـ .

وقد رسم أبو بكر وعمر لزيد بن ثابت طريقة دقيقة لكتابة القرآن فيها ضمان لحياطته بما يليق به هى أن لا يكتفى بما حفظ فى قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه بل يتتبع ويستقصى ويعتمد فى جمعه على مصدرين أحدهما ما كتب بين يدى المصطفى صلى الله عليه وسلم والثانى ما كان محفوظا فى صدور الرجال على أن لا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد ورد أن أبا بكر قال لعمر ولزيد (اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه) .

على هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن باشراف إجلاء الصحابة وإجماعهم عليه فكان منقبة خالدة يذكرها التاريخ بالفخر لأبى بكر وعمر وزيد رضى الله عنهم أجمعين .

ولا يطعن فى هذا الدستور ما جاء فى حديث البخارى من قول زيد (حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد

خبيره) فإن المراد أن آخر سورة التوبة لم يوجد مكتوباً إلا عند واحد وذلك لا ينافي أنه وجد محفوظاً عند كثرة غامرة من الصحابة بلغت حد التواتر. وكذلك يقال في كل ما كان من هذا القبيل.

وقد اقتصر في هذا المصحف على ما لم تنسخ تلاوته وعلى ما أجمع على تواتره وبقي شاملا للأحرف السبعة.

ومن هذا يتبين أن جمع القرآن على هذا النحط لم يعرف قبل أبي بكر رضي الله عنه وذلك لا ينافي أن بعض الصحابة كان لهم صحف كتبوا فيها القرآن من قبل لكنها لم تظفر بما ظفرت به الصحف المجموعة على عهد أبي بكر من دقة البحث وزيادة التحري مع الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته وعلى ما تواتر نقله ومن شمول الأحرف السبعة فلا يرد أنه كان لعلي كرم الله وجهه مصحف جمع فيه القرآن لأنه ليست له هذه الصفة الإجماعية بل هو مصحف فردي كما كان لبعض الصحابة مصاحف فردية وإن تقدمت في الوجود على مصحف أبي بكر وقد قال علي كرم الله وجهه (أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر. رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله).

وقد حفظت هذه الصحف التي جمعها زيد عند أبي بكر حياته ثم عند عمر حياته ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر حتى طلبها منها خليفة المسلمين عثمان بن عفان ليجمع القرآن الجمع الثالث والأخير وقد جاء دور الكلام عليه فاستمع إليه.

(٣) الجمع الثالث على عهد عثمان

عرفنا في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أن الصحابة لما اختلفوا في الأداء وكان ذلك في حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم رجعوا إليه فيما اختلفوا فيه فعرفهم أن القرآن نزل على سبعة أحرف وصوب قراءة كل — وبذلك زال خلافهم وعاشوا حياته وحياة الخليفة الأول أبي بكر والخليفة الثاني عمر وهم بعيدون عن الشقاق والخلاف في أمر القراءة والأداء.

ولكن بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وبعيد طول العهد بالرسول والوحي وفي عهد الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه بالذات عاد الخلاف إلى أشده — وساعد عليه أن اتسعت رقعة الإسلام وزادت الفتوحات وتفرق المسلمون في الأمصار وخفي أمر نزول القرآن على سبعة أحرف حتى صار كل أهل أقليم يأخذون القرآن بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ولم يكن عندهم مصحف جامع يرجعون إليه عند الاختلاف — فكانت هذه الأسباب مجتمعة سبباً في فتح باب الخلاف على مصراعيه حتى استفحل الداء وعم الشقاق جميع الأمصار حتى الحجاز نفسه .

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنه قال (لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة الرجل فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضاً فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال أنتم عندي تختلفون فمن نأى عني من الأمصار أشد خلافاً)

لهذا رأى عثمان بثاقب رأيه وصادق نظره أن يتدارك الأمر ويستأصل الداء فجمع أعلام الصحابة لوضع حد لذلك الاختلاف واستشارهم فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل بها إلى الأمصار ثم يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها — وشرع عثمان في تنفيذ الفكرة (أواخر سنة ٢٤ وأوائل سنة ٢٥) فجاء بالصحف التي عند حفصة بنت عمر وعهد في نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ وهم زيد بن ثابت الأنصاري (وهو الذي عهد إليه بالجمع الثاني في عهد أبي بكر) وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام (القرشيون) .

ورسم لهم أن لا يكتبوا في هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن وعلموا أنه استقر في العرضة الأخيرة مما لم تنسخ تلاوته على أن يعرضوه قبل الكتابة على الصحابة فيقروهم عليه وقال للثلاثة القرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم وبدءوا على هذا

الأساس عملهم فكتبوا مصاحف متعددة وذلك لتشمل فى مجموعها جميع القراءات المتواترة وليمكن إرسال عدد منها إلى أشهر أقطار البلاد الإسلامية المتعددة مع احتفاظ الخليفة لنفسه بنسخة تكون كالأصل وتسمى بالمصحف الإمام .

وقد لاحظ الأربعة فى نسخ المصاحف أن يكتب اللفظ بصورة واحدة إذا كانت لا تختلف وجوه القراءة فيه وكذلك اللفظ الذى تختلف فيه وجوه القراءات المتواترة إذا كان يدل عليها الرسم بصورة واحدة ، حيث لا شكل ولا إعجام فيبقى اللفظ محتملا للقراءات كلها مثل (فتبينوا فى الحجرات) فإنه من غير شكل ولا إعجام محتمل لقراءة (فتثبتوا) ومثل (ننشزها فى البقرة) فإنه محتمل لقراءة (ننشرها) بالراء .

وأما اللفظ الذى تختلف فيه وجوه القراءات المتواترة ولا يمكن رسمه فى الخط محتملا لتلك الوجوه ، فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه ، فى مصحف ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى فى مصحف آخر وذلك مثل (ووصى بها إبراهيم وأوصى بها إبراهيم فى البقرة) ومثل (تجرى تحتها الأنهار وتجرى من تحتها الأنهار فى التوبة) — وقد ساعدهم على ملاحظة ذلك أنهم تلقوا القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بهذه الوجوه .

وبعد أن تموا نسخ المصاحف على هذا النحو رد عثمان الصحف إلى حفصة رضى الله عنها وأرسل إلى كل أفق بمصحف واحتفظ لنفسه بواحد وأمر أن يحرق ما سوى ذلك من صحيفة أو مصحف فكان عملا جليلا قاطعاً للنزاع وحاملا للمسلمين على الجادة فى كتاب الله فرحمه الله ورضى عنه .

وقد اختلف فى عدد المصاحف التى كتبت فى عهد عثمان فقيل إنها ستة (المكى والشامى والبصرى والكوفى والمدنى العام والمدنى الخاص الذى حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام) وقيل هى ثمانية خمسة متفق عليها (الكوفى والبصرى

والشامى والمدنى العام والمدنى الخاص) وثلاثة مختلف فيها (المكى ومصحف البحرين ومصحف اليمن) وقيل هى أربعة وهو الأكثر (العراقى والشامى والمصرى والمصحف الإمام) .

روى البخارى فى صحيحه عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه (أن حذيفة ابن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق) .

وروى أبو بكر الأنبارى عن سويد بن غفلة قال (سمعت على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم حراق مصاحف فوالله ما حرقها إلا على ملأ منا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وعن عمر بن سعيد قال (قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان) .

هذا وقد توافر فى هذا الجمع من المزايا ما لم يتوافر فى جمع أبى بكر رضى الله عنه فمن هذه المزايا :

(١) ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف للآن .

(٢) تجريد المصاحف من كل ما ليس قرآنا كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة شرحا للمعنى أو تعليقاً أو نحو ذلك .

(٣) تنظيم جمعها لوجوه القراءات المختلفة على الوجه الذى قدمناه قريباً .

وذلك بعدم إعجام اللفظ أو شكله إذا احتمل الرسم الواحد تلك الوجوه وبتوزيع الوجوه على المصاحف إذا لم يحتمل الرسم الواحد تلك الوجوه .

ومن الجدول الآتى يتبين مقارنة الجمع فى عهوده الثلاثة [عهد النبى صلى الله عليه وسلم - وعهد أبى بكر رضى الله عنه - وعهد عثمان رضى الله عنه] فتأمله تزدد بيانا ويقينا .

جدول مقارنة الجمع فى عهوده الثلاثة

الجمع فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم	الجمع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه	الجمع فى عهد عثمان رضى الله عنه
١) كان غير مرتب السور ولا الآيات	كان مرتب الآيات دون السور وقيل كان مرتبهما	كان مرتب السور والآيات جميعاً باتفاق
٢) لم يجرد من النقط والشكل	لم يجرد من النقط والشكل	جرد من النقط والشكل
٣) لم يجرد من التعليقات والتفسيرات	لم يجرد من التعليقات والتفسيرات	جرد من التعليقات والتفسيرات
٤) كان فيه منسوخ التلاوة	جرد من منسوخ التلاوة	جرد من منسوخ التلاوة
٥) كان فيه غير المتواتر	اقتصر فيه على ما أجمع على تواتره	اقتصر فيه على ما أجمع على تواتره
٦) كان شاملا لأنواع القراءات	كان شاملا لأنواع القراءات	كان منظما لأنواع القراءات بالرسم أو التوزيع بين المصاحف
٧) كان شاملا للأحرف السبعة	كان شاملا للأحرف السبعة	كان منظما للأحرف السبعة إما بالرسم أو التوزيع بين المصاحف (على الرأى الأول فى معنى الوجوه) أو كان قاصرا على حرف قريش فقط (على الرأى الثانى)

ملاحظة : كان القرآن الكريم فى العهود الثلاثة محفوظا فى الصدور على ترتيبه المقروء الآن حسب العرضة الأخيرة فلا تنسه .

(ج) الرد على ما يثار حول جمع القرآن من شبه

تمسك بعض الطاعنين فى القرآن بشبه واهية تتعلق بجمع القرآن ونحن نجملها فى أربعة :

الشبهة الاولى

قال الملحدون : إن القرآن الذى بأيدينا اليوم ناقص وقد سقط منه شىء بدليل .

(١) ما جاء فى سورة الأعلى من قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) فالاستثناء يدل على أن الرسول قد ينسى من القرآن ما شاء الله أن ينساه .

(٢) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (رحم الله فلانا لقد أذكرنى كذا وكذا آية كنت أنسيتهن).

(٣) وما روى أن أبى بن كعب جعل القنوت من القرآن وكان يرويه ويكتبه فى مصحفه مع أنه ليس فى القرآن الذى بأيدينا .

(٤) غالب الآيات لم يكن لها سند سوى حفظ الصحابة وكان بعضهم قد مات عندما جمع أبو بكر القرآن فلم يجمع إلا ما كان يحفظه الأحياء.

(٥) الكتابة على العظام والرقاع ونحوها كانت غير منظمة ولا مضبوطة وقد ضاع بعضها بفعل الزمان .

(٦) روى أن الحجاج قام بنصرة بنى أمية فجمع المصاحف وأسقط منها ما كان قد نزل فيهم وكتب مصاحف جديدة ووجهها إلى الأمصار وهى الموجودة الآن .

وللرد على هذه الشبهة نقول .

(١) أما ما جاء فى سورة الأعلى فإن الاستثناء يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله تعالى إياه والمشيئة لم تقع لأن الله تعالى قد ضمن لنبيه صلى الله عليه

وسلم أن يجمع له القرآن فى صدره ووعده حق قال تعالى : (إن علينا جمعه وقرآنه) والاستثناء فى الحقيقة صورى لا حقيقى والداعى إليه هو أمور منها إعلام الله الخلق أن عدم نسيان المصطفى صلى الله عليه وسلم بمقتضى وعده إياه فى قوله (فلا تنسى) إنما هو محض فضل من الله وإحسان ومنها إعلامهم أيضا أن تنبيهم فيما خصه الله به من العطايا والخصائص لم يخرج عن دائرة العبودية ومنها إشعار النبى نفسه أنه دائما مغمور بنعمة الله وعنايته ما دام متذكراً للقرآن لا ينساه .

ويجوز أن يكون الاستثناء حقيقياً ويكون المستثنى هو منسوخ التلاوة دون غيره كما قال تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها ـ الآية ـ البقرة) وما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم نسى شيئاً كان يذكره فذلك فى غير ما أنزل الله من الكتاب والاحكام التى أمر بتبليغها . وورد أنه نسى فى الصلاة فسلم من اثنتين فى الرباعية كما جاء فى حديث ذى اليدين — وكان ذلك للتشريع .

(٢) وأما الخبر فإنما يدل على أن قراءة الرجل (وهو عباد بن بشار) للآيات ذكرت النبى صلى الله عليه وسلم إياها وكانت قد غابت عن ذاكرته وهذا النوع وإن سمى نسياناً لا يزعزع الثقة بالقرآن فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد حفظ هذه الآيات قبل أن يحفظها عباد واستكتبها كتاب وحيه وبلغها للناس وحفظوها عنه ـ فالخبر لا يفيد أن هذه الآيات قد أنمحت من ذهنه صلى الله عليه وسلم جملة إنما غاية ما تفيد أنها كانت غائبة عنه ثم ذكرها والدليل قائم على استحالة النسيان التام فيما يخل بوظيفة الرسالة .

وعلى هذا فالاصل الذى قام عليه كتابة القرآن وجمعه سليم قويم ويحققه هنا وجود هذه الآيات مكتوبة فى الوثائق ووجودها محفوظة فى صدور الصحابة الذين بلغ عددهم مبلغ التواتر — وقد تقدم أن دستور جمع القرآن هو عدم كتابة شىء فى المصحف إلا ما تظاهر الحفظ والكتابة والاجماع على قرآنيته .

(٣) وأما أن الصحابة حذفوا من القرآن القنوت الذى كان مكتوبا فى مصحف أبى بن كعب فلأنه لم تثبت قرآنيته حتى يكون فى عداد القرآن ومن يدعى قرآنيته فعليه البيان وليس وجود القنوت فى مصحف أبى بن كعب دليلا على قرآنيته فقد كان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم فى صحف أو مصاحف خاصة بهم ولندرة أدوات الكتابة ربما كتبوا فى صحفهم ما ليس بقرآن مما يكون تأويلا لبعض ما غمض من معانى القرآن أو مما يكون أدعية تتلى فى الصلاة كما يتلى القرآن وهم يعلمون أنه ليس بقرآن وقد أمنوا على أنفسهم اللبس وهم مع هذا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن وأيقظ الخلق فى حراسة القرآن ولهذا لم يعتبروا فى جمع القرآن إلا ما ثبت بالتواتر وقد تقدم لك أن عثمان رضى الله عنه جرد الصحف من كل ما علق بها واستبق ما ثبت بالتواتر قرآنيته فلا لبس ولا إبهام ولا حذف ولا إهمال .

(٤) وأما أن كثيراً من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى حفظ الصحابة الذين قتلوا أو ماتوا فمردود بأن كثيراً غيرهم كان يحفظه أيضا فلم يمت القراء كلهم وقد كان من حفظته أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت وغيرهم كثير وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن فى عهد أبى بكر وعاش منهم من حضر نسخ المصاحف فى عهد عثمان وكانت كتابة زيد فى كلتا المرتين لكل القرآن فلم تفلت منه كلمة واحدة ولا حرف واحد .

(٥) وأما أن الكتابة فى العظام ونحوها كانت غير منظمة فقد نقضناه بما قدمناه من أن جمع القرآن وترتيب آياته وسوره كان توقيفياً وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرشد الصحابة إلى موضع الآية من سورتها وموضع السورة من أختها وكان يقرئهم القرآن على هذا الترتيب الذى نقرأه الآن وصار ذلك مستفيضاً حفظا وأن تفرق فى الكتابة — وقد عرفت غير مرة أن التعويل كان على الحفظ والرواية قبل كل شىء فلا تغفل .

(٦) وأما ما نسبوه للحجاج فهو كذب لا دليل عليه فلم يجمع الحجاج المصاحف وبالتالى لم ينقص ولم يزد وكيف يتصرف فى القرآن الحجاج وأئمة

الدين موجودون فى عهده ويسكتون — ثم إنه مع هذا كان عاملا فى إحدى ولايات الإسلام لا أكثر فكيف يستطيع أن يجمع المصاحف من جميع الولايات ويتصرف فيها بهواه ويحرفها سبحان الله هذا بهتان عظيم .

الشبهة الثانية

وهى تكمن الشبهة الأولى فقد قالوا إن القرآن حصلت فيه زيادة عند الجمع لأن آية الملعنة لم تكن فى مصحف على بن أبى طالب وكان يضرب من يقرأها ولأن ابن مسعود أنكر المعوذتين كما أن فى القرآن كلاما لأبى بكر وهو (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية من سورة آل عمران وكلاما لعمر هو (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) من سورة البقرة .

وتنقض هذه الشبهة بأنه لم يصح ما نقل عن على وابن مسعود أنهما أنكرا ما ذكر من آية الملعنة والمعوذتين (على التوزيع) كيف وقد ثبتت قرآنية ذلك بالتواتر — وعلى فرض صحة ما نقل عنهما يكون إنكارهما قبل علمهما بالقرآنية فلما تبين لهما ذلك وعم التواتر وانعقد الإجماع على القرآنية كانا فى مقدمة من آمن بالقرآنية .

وأما آية (وما محمد إلا رسول) فقد قالها أبو بكر لما مات رسول الله وذهل الصحابة لهول الحادث حتى كأنهم لم يعلموا أن هذه الآية نزلت فلما تلاها أبو بكر ذكرهم بها وقد كانت نزلت قبل وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم ببضع سنين ولعل هذا هو مثار الشبهة عند الملحدين قاتلهم الله .

وأما قوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فشعار الشبهة فيه أنها من موافقات عمر فقد قال للرسول صلى الله عليه وسلم (لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى) فنزل (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وبالتأمل يرى أن بين الكلامين فرقا فى العبارة — وتحقيق القرآن لأمنيات عمر لا يدل على أن ما نزل تحقيقا لها يكون من كلام عمر .

خلاصة الرد على الشبهتين

وخلاصة الرد على الشبهتين الأولى والثانية وأمثالهما أن التواتر قد قام والإجماع قد انعقد على أن الموجود بين دفتى المصحف بيننا الآن هو كتاب الله من غير زيادة ولا نقص ولا تغيير ولا تبديل والتواتر طريق العلم والإجماع سبيل الحق (فماذا بعد الحق إلا الضلال) قال الطبرسى فى مجمع البيان مانصه (أما الزيادة فى القرآن فمجمع على بطلانها وأما النقصان فهو أشد استحالة ثم قال أن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة فإن العناية اشتدت والدواعى توافرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم يبلغه شىء مما ذكرناه لأن القرآن مفخرة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وحمايته الغاية حتى لقد عرفوا كل شىء من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته فكيف يجوز أن يكون مغيراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد) .

الشبهة الثالثة

قالوا روى عن ابن مسعود أنه قال : (يا معشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه فى صلب رجل كافر) ويعنى بهذا الرجل زيد بن ثابت (رضى الله عنه) وهذا يدل على أن ابن مسعود وهو ذو المكانة العظمى فى الإسلام لم يكن موافقاً على هذا الجمع وبالتالى يدل على أن القرآن الموجود بين أيدينا الآن ليس موضع ثقة من جميع الصحابة .

والجواب أن هذا الكلام إن صح عن ابن مسعود فإنما يدل على أنه يثق بنفسه فى جمع القرآن أكثر من ثقته بزيد وأنه أولى من زيد أن يسند إليه جمع القرآن ولا يدل مطلقاً على الطعن فى جمع القرآن ثم إن ثقة ابن مسعود بنفسه تقدير منه لنفسه ولا شك أن تقدير أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم

من أجلاء الصحابة لزيد بن ثابت أصدق من تقدير ابن مسعود لنفسه — وقد عرفت فيما سبق مجموع المؤهلات التى توافرت فى زيد بن ثابت وعرفت أن عثمان ضم إليه ثلاثة من خيرة الحفاظ وأشرف هو والصحابة عليهم فاعتراض ابن مسعود (على فرض صحته) كان منصباً على طريقة تأليف لجنة الجمع لا على صحة نفس الجمع وقد كان يرجو المثوبة باشتراكه فى جمع القرآن وغضب لحرمانه من هذا الثواب وبعد أن زال الغضب عنه عرف حسن اختيار عثمان رضى الله عن الجميع .

الشبهة الرابعة

يقولون كيف يكون القرآن متواتراً مع ما يروى عن زيد بن ثابت أنه قال : فى الجمع الثانى على عهد أبى بكر (فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول . الآيتين) — وقال فى الجمع الثالث على عهد عثمان (ففقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . الآية) فهذا يدل على أنه اعتمد فى بعض ما جمع على خبر الواحد .

والجواب أن كلام زيد فى الموضعين معناه أنه لم يجد الآيتين مكتوبتين إلا عند خزيمة وأبى خزيمة وهذا لا يبطل التواتر لأن زيداً لم يأخذ بقول كل فيما وجده عنده بل ثبتت الآيات المذكورة بأخبار كثرة غامرة من الصحابه عن حفظهم فى صدورهم وإن لم يكتبوها فى أوراقهم إذ ليست الكتابة شرطاً فى التواتر وقد عرفنا أن التعويل كان على الحفظ أكثر من الكتابة فتنبه ولا تنسه . فقد تقدم لك هذا الجواب فى الجمع الثانى .

وننتقل الآن إلى الموضوع الرابع من المنهاج والله الموفق والمعين .

الموضوع الرابع من المنهاج

ترتيب القرآن وكتابته ورسم المصحف

مباحثه

(ا) معنى الآية وطريق معرفتها — وعدد الآيات وترتيبها .

(ب) معنى السورة وطريق معرفتها — وأقسام السور وترتيبها .

(ج) كتابة القرآن ورسم المصحف .

(د) الشبه التي أثيرت حول ترتيب القرآن وكتابته ورسم المصحف .

(هـ) المصاحف تفصيلا — إجمالها وشكلها .

(ا) معنى الآية وطريق معرفتها وعدد الآيات وترتيبها :

تطلق الآية في اللغة على معان منها المعجزة — والعلامة — والعبرة — والأمر العجيب والدليل — وأما في الاصطلاح فهي الطائفة من الكلمات القرآنية المندرجة في سورة من القرآن — وآخر الآية يسمى فاصلة .

وطريق معرفة الآية : هو التوقيف من الشارع بدليل عد (ألمص) آية وعدم عد نظيره وهو (ألمر) آية وكذلك يس مع طس — وبدليل عد (حمعسق) آيتين وعدم عد نظيرتها (كهيعص) آيتين بل آية واحدة — فلا سبيل إلى القياس في ذلك ولا مجال للرأي فيه وإنما هو محض التعلم والإرشاد هذا هو الرأي المعتمد — وأما خلاف بعض العلماء في بعض الآيات فلأن كلا وقف عند ما بلغه وعلمه — وبيان ذلك أن ما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف عليه دائما تحققنا أنه فاصلة تنتهي عنده الآية — بوحا بوصله

دائما تحققنا أنه ليس فا صلة فلا تنتهى عنده الآية ـ وما وقف عليه تارة ووصله أخرى احتمل الأمرين ومن ذلك كلمة (عليهم) الأولى فى سورة الفاتحة فمنهم من يعتبرها رأس آية ومنهم من لا يراها كذلك ـ مع اتفاقهم على أن عدد آيات الفاتحة سبع اختلفوا فى البسملة هل هى آية من الفاتحة أم لا فعلى الأول يكون (صراط الذين الخ السورة) آية واحدة ـ وعلى الثانى يكون عليهم (الأولى) رأس الآية السادسة والباقى هو الآية السابعة . وهو مذهب السادة المالكية .

وأما عدد الآيات القرآنية فقد اتفق العادون على أنها ستة آلاف ومائتين وكسر وهذا الكسر اختلف فى تقديره ففى العد المدنى الأول سبع عشرة وفى العد المدنى الأخير أربع عشرة وفى العد المكى ست وثلاثون وفى العد البصرى خمس وفى العد الشامى ست وعشرون .

وسبب هـذا الاختلاف ما قدمناه لك من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقف على بعض الكلمات تارة ويصلها تارة أخرى — وهـذا الخلاف لا يؤدى الى ضرر لأنه لا يترتب عليه فى القرآن زيادة أو نقص .

وآيات القـرآن مختلفة فى الطول والقصر فأطول آية هى آية الدين فى سورة البقرة التى هى أطول سورة فى القرآن — وأقصر آية كلمة (يس) الواقعة فى صدر سورة يس .

وفائدة معرفة الآيات (١) العلم بأن كل ثلاث آيات معجز لقوله تعالى : فأتوا بسورة من مثله وأقصر سورة هى سورة (الكوثر) وهى ثلاث آيات قصار وفى حكمها الآية الواحدة الطويلة (٢) حسن الوقف على رءوس الآى فانه سنة (٣) اعتبار الآيات فى الصلاة وفى الخطبة عند من يرى قراءة سبع آيات بدل الفاتحة عند جهلها وعند من يرى وجوب قراءة آية كاملة فى الخطبه .

وأما ترتيب الآيات ـ فقد انعقد الإجماع على أنه توقيفى عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان ينزل جبريل بالآيات عليه ويرشده الى موضع كل آية من سورتها ثم يأمر كتاب وحيه بكتابتها فى سورتها المعينة ويقرؤها على أصحابه

وكان جبريل يعارض بالقرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عام مرة وعارضه فى العام الأخير من حياته الشريفة مرتين ـ كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا فى المصحف الآن ـ وكان الصحابة يحفظونه ويتلونه ويتدارسونه ويأخذ بعضهم عن بعض كل ذلك بالترتيب القائم الآن ـ وقد ثبت فى السنن قراءة النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة بسورة كاملة كسورة البقرة وآل عمران والنساء والأعراف والمؤمنون والروم والسجدة وهل أتى والجمعة والمنافقون كل ذلك مرتب الآيات على النحو الذى فى المصحف الآن ـ وقد أخرج الإمام أحمد عن عثمان بن العاص قال : كنت جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صعد به ثم قال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة (إن الله يأمر بالعدل والإحسان ـ الآية) .

(ب) معنى السورة وطريق معرفتها وأقسام السور وترتيبها :

تطلق السورة فى اللغة على معان منها المنزلة ـ والشرف ـ وما طال من البناء ـ والعلامة وفى الاصطلاح هى الطائفة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع ـ وهى مأخوذة من سور المدينة لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة وآية بجانب آية كالسور توضع كل لبنة فيه بجانب لبنة ويقام كل صف فيه على صف ـ أو لما فيها من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته الحسية ـ أو لأنها حصن وحماية للوسول ولدينه أشبه بسور المدينة يحصنها ويحميها من الأعداء .

وسور القرآن مختلفة طولا وقصرا فأطول سورة فيه هى سورة البقرة وأقصر سورة فيه هى سورة الكوثر .

وإنما جزئ القرآن إلى سور لحكم منها (١) التيسير على الناس فى الحفظ والدراسة ومنها (٢) ان الجنس اذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا ـ ومنها (٣) أن القارئ اذا أتم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ فى آخر كان أبسط له وأبعث على التحصيل مما لو استمر على الكتاب بطوله ـ ومنها (٤) ان الحافظ اذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم عنده ما حفظه .

وأما طريق معرفة السور : فهو التوقيف الذى هو بعينه طريق معرفة الآيات فلا مجال للرأى فيه ولا دخل للاجتهاد فى تسوير السور .

وأما أقسام السور فهى أربعة (الطوال — والمئون — والمثانى — والمفصل) — فالطوال سبع (البقرة — آل عمران — النساء — المائدة — الأنعام — الأعراف — والسابعة قيل هى الأنفال وبراءة معا لعدم الفصل بينهما بالبسملة — وقيل هى يونس) — والمئون هى التى تزيد آياتها على مائة أو تقاربها والتسمية ظاهرة — وأما المثانى فهى التى تلى المئين فى عدد الآيات والتسمية بذلك لأنها تثنى أى تكرر فى القراءة أكثر من الطوال والمئين — وأما المفصل فهو أواخر القرآن فقيل من أول ق وقيل من أول الحجرات — والتسمية بذلك لكثرة الفصل بين سوره البسملة — والمفصل ثلاثة أقسام طواله وأوساطه وقصاره — فالأول الى البروج والثانى الى لم يكن والثالث الى آخر القرآن .

وأما ترتيب السور : فقيل باجتهاد من الصحابة بدليل أن مصاحفهم كانت مختلفة الترتيب قبل أن يجمع عثمان المصحف الإمام — فمصحف أبى كان مبدوءا بالفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام — ومصحف ابن مسعود كان مبدوءا بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران — ومصحف على كان مرتبا على النزول فأوله اقرأ ثم المدثر ثم ق ثم المزمل وهكذا — وبدليل ما رواه ابن عباس قال (قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهى من المثانى والى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا أنزل عليه شئ دعا بعض من يكتب

فيقول (ضعوا هذه الآية فى السورة التى فيها كذا وكذا) وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا

أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال ا هـ .

وقيل أن ترتيب السور توقيفى كترتيب الآيات لأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذى كتب فى عهد عثمان ولم يخالف منهم أحد وما ذاك إلا لأن الترتيب الذى أجمعوا عليه عن توقيف فلم يتمسك أصحاب المصاحف المختلفة بمصاحفهم بل عدلوا عنها وأحرقوها ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه .

وقد أخرج ابن أشته فى كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان ابن بلال قال سمعت ربيعة يسأل لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة وإنما أنزلتا بالمدينة ـ فقال قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه به إلى أن قال فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه ا هـ .

وأصحاب هذا القول يردون دليل الرأى الأول بأن اختلاف الصحابة فى مصاحفهم كان قبل علمهم بالتوقيف أو كان فى خصوص ما لم يرد فيه توقيف

وقيل أن ترتيب السور بعضه توقيفى وبعضه باجتهاد الصحابة ولعل هذا الرأى هو الأمثل لأنه وردت آثار تفيد ترتيب بعض القرآن وآثار أخرى تصرح بأن الترتيب فى البعض كان بالاجتهاد .

وسواء أكان الترتيب فى السور توقيفيا أو اجتهاديا فانه ينبغى احترامه خصوصا فى كتابة المصاحف لأنه إجماع من الصحابة والإجماع حجة — ولأن خلافه يؤدى إلى فتنة أما تلاوة القرآن فليس الترتيب فيها بواجب وإنما هو مندوب ـ وأما تعلم الصبيان فليس من هذا الباب لأن المفروض فيه تسهيل الحفظ عليهم فلا بأس بأن يكون من آخر المصحف إلى أوله كما يفعل الآن فى المكاتب .

حـ — كتابة القرآن ورسم المصحف :

عرفنا فيما سبق أن الأمة العربية كانت أمية ولم يكن بها متعلمون إلا قلائل فى مكة وأما أهل المدينة فكان بينهم أهل الكتاب من اليهود الذين يحذقون الكتابة والقراءة ولما جاء الإسلام عمل على محو الأمية وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع أصحابه إلى تعلم الخط وكان يقبل فى الفداء تعليم الكتابة —

فأخذت ظلمات الأمية تتبدد بأنوار الإسلام شيئا فشيئا ويحل محلها العلم والكتابة والقراءة حتى لقد قيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف القراءة والكتابة فى آخر أمره بعد أن قامت حجته وعلت كلمته ـ فقد كانت الحكمة فى أميته أول الأمر إقامة الدليل على صدقه فى نبوته ورسالته ولو كان كاتبا قارئا وهم أميون لراجت تهمتهم له بأن ما جاء به كان نتيجة اطلاع ودرس قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون) فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وقامت الحجة تعلم الرسول القراءة والكتابة آخر حياته ويدل على هذا الرأى ما رواه ابن ماجه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (رأيت ليلة أن أسرى بى مكتوبا على باب الجنة الصدقة بعشرة أمثالها والقرض بثمانية عشر) ـ وما رواه البخارى فى صلح الحديبية (فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الحديث) .

وقيل أنه لم يتعلم القراءة ولا الكتابة أصلا بدليل الحديث الصحيح (أنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) فأما قوله فكتب الخ فمعناه أمر بالكتابة .

هذا وليس فى الموضوح نص قاطع فكان الأمر محتملا والله هو العليم الخبير .

أما بعد فقد قدمنا لك فى مبحث جمع القرآن كيف كتب القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبى بكر وعلى عهد عثمان رضى الله عنهم ومنه نعلم أن عناية الرسول وأصحابه بكتابة القرآن كانت فائقة وأن عثمان كتبه بالرسم الذى ارتضاه الصحابة وكان هذا الرسم مخالفا فى بعض الألفاظ لهجاء النطق وذلك لأغراض شريفة ـ وقد عنى العلماء بالكلام على الرسم العثمانى وألفت فيه مؤلفات كثيرة وحصر المؤلفون الكلمات التى جاءت على غير قياس النطق وبينت المؤلفات قواعد رسم القرآن وحصرتها فى ست قواعد هى الحذف والزيادة والهمز والبدل والفصل والوصل وما فيه قراءتان فقرئ على أحدهما .

ومن مزايا هذه القواعد الدلالة على القراءات المتنوعة فى كلمة واحدة بقدر

الإمكان وحمل الناس على تلقى القرآن من صدور الثقاة قلا يتكلوا على هذا الرسم الذى جاء غير مطابق للنطق فيحصل التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده كما يحصل اتصال السند برسول الله صلى الله عليه وسلم وتلك خاصة من خواص هذه الأمة المحمدية .

وللعلماء فى رسم المصحف رأيان :

الأول : أنه توقيفى وهو مذهب الجمهور ودليله أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان له كتاب وحى يكتبون القرآن وقد كتبوه بهذا الرسم وأقرهم الرسول على ذلك ومضى العهد إلى الآن باجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم دون نكير على ذلك — وقد سئل مالك رضى الله عنه فقيل له أرأيت من استكتب مصحفا أترى أن يكتب على ما استحدث من الهجاء اليوم فقال لا أرى ذلك .

الثانى : أنه اصطلاحى فيجوز مخالفته — ودليله أنه ليس فى الكتاب ولا فى السنة أن رسم القرآن لا يجوز إلا على وجه مخصوص — كما لم يرد إجماع بتوقيف ذلك ولا دلت عليه القياسات العامة الشرعية .

وبناء على هذين الرأيين اختلف فى منع كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم وجوازها — فعلى الرأى الأول لا يجوز وعلى الثانى يجوز وهو الذى مال إليه صاحب البيان وصاحب البرهان وهو ما يفهم من كلام العز بن عبد السلام وربما يفهم من كلامه أنه يجب كتابة المصاحف الآن على القواعد المعروفة الشائعة ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثمانى وقال (ومع هذا تجب المحافظة على الرسم الأول كأثر من الآثار النفيسة) .

أقول — أما الكتابة للتعليم فيحمل عليها كلام العز بن عبد السلام أبعادا عن اللبس والخلط وإيقاظا للنشاط وتيسيرا للحفظ والفهم .

وأما كتابة المصاحف فينبغى أن يبقى على ما أحكمه القدماء حيث يقرأه العارفون ومن لا يخشى عليهم الالتباس — ولا يترك الرسم العثمانى مراعاة لجهل الجاهلين — ويمكن تسهيل القراءة على الناس فى المصاحف باذاعة القرآن كثيرا إذاعة مضبوطة دقيقة وباذاعة فن التجويد فى المدارس والمعاهد وأوساط

المتعلمين ـ كما يمكن أن ينبه فى ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف والاصطلاح المألوف .

وقد مرت على الأمة أجيال وقرون وما شعرت بغضاضة فى التزامها الرسم العثمانى ـ على أن المعول عليه أولا وقبل كل شئ هو التلقى من صدور الرجال وبالتلقى يذهب الغموض وبالله التوفيق .

(د) الشبه التى أثيرت حول ترتيب القرآن وكتابته ورسم المصحف :

ورد على ترتيب شبهتان :

الأولى ـ كيف كان ترتيب القرآن توقيفيا مع أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة ـ والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القائلين بأن ترتيب السور اجتهادى ـ ولا على القائلين بأن منه توقيفيا ومنه اجتهاديا حيث يحمل الاختلاف على القسم الاجتهادى ـ أما على القول بأنه كله توقيفى فيجاب بأنهم اختلفوا قبل أن يعلموا التوقف ولما جمع عثمان القرآن على هذا الترتيب علموا ما لم يكونوا يعلمون وتركوا ترتيب مصاحفهم وأخذوا بترتيب عثمان رضى الله عنه فانتهى خلافهم .

الثانية ـ كيف يكون ترتيب القرآن توقيفا على حين أن رواية ابن عباس تصرح بأن عثمان لم يسمع فى شان ترتيب الأنفال مع براءة شيئا ـ إنما هو اجتهاد ونظر منه ـ الجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القول بأن الترتيب إجتهادى أو أن منه اجتهاديا ومنه توقيفيا ـ وأما على القول بأنه توقيفى فيجاب بأن حديث ابن عباس لم يصح وقد قال الترمذي وهو راويه أنه حسن غريب .

وورد على كتابة القرآن ورسم المصحف شبه منها .

أولا ـ يقولون أنه روى عن عثمان أنه لما عرض عليه المصحف قال (أحسنتم وأجملتم إن فى القرآن لحنا ستقيمه العرب بألسنتها) كما روى أنه لما وجد حروفا من اللحن قال (لا تغيروها فان العرب ستغيرها أو قال ستعربها بألسنتها لو كان الكاتب من ثقيف والملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف والجواب أن ما جاء فى هاتين الروايتين ضعيف الإسناد وأن فيها اضطرابا

وانقطاعا و يبعد أن يصف عثمان نساخ المصحف بأنهم أحسنوا وأجملوا ثم يصف المصحف الذى نسخوه بان فيه لحنا ـ وعلى فرض صحته يمكن تأويله بما يتفق والصحيح المتواتر عن عثمان من نهاية التثبت والدقة فيراد بكلمة لحنا قراءة ولغة ـ وهو معنى متعارف لغة و به جاء قوله تعالى (ولتعرفنهم فى لحن القول) والمعنى أن فى القرآن أو فى رسمه وجها فى القراءة لا تلين به ألسنة العرب جميعا ولكنها لا تلبث أن تلين به ألسنتهم جميعا بالمران .

ثانيا — روى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ (والمقيمين الصلاة) و يقول هو من لحن الكتاب والجواب أن ابن جبير لم يرد باللحن الخطأ و إنما يريد اللهجة والوجه كما تقدم والدليل على ذلك أن ابن جبير كان يقرأ بهذه القراءة فلو كانت خطأ ما قرأ بها والكلمة فى سورة النساء بين مرفوعين فى آية (لكن الراسخون) وقرئ بالرفع .

الثالثة ـ ما روى عن ابن عباس (١) أنه قال فى قوله تعالى (حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) إن الكاتب أخطأ والصواب حتى تستأذنوا (٢) وأنه قرأ (أفلم يتبين الذين آمنوا إن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) فقيل له إنها فى المصحف أفلم ييأس فقال أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس (٣) وأنه كان يقول فى قوله تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) إنما هى (ووصى) التزقت الواو بالصاد ولو كان قضاء من الرب لم يستطع أحد رد قضاء الرب ولكنها وصية أوصى بها العباد (٤) وأنه قرأ (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان ضياءا) و يقول احذفوا هذه الواو واجعلوها فى (الذين قال لهم الناس) وروى واجعلوها فى (الذين يحملون العرش ومن حوله) (٥) وأنه قال فى قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة) إنما هى (مثل نور المؤمن كمشكاة) .

والجواب عن هذه الشبهة أولا بأن ما روى عن ابن عباس فى هذه الأمور الخمسة ونحوها لا يمكن صحته لأن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت وأبى بن كعب وهما كانا فى جمع المصاحف فى عهد عثمان وكان زيد فى جمع أبى بكر أيضا وكان من كتاب الوحى وابن عباس يعرف ذلك و يوقن به فمحال

إذن أن ينطق لسانه بكلمة تحمل رائحة اعتراض على جمع القرآن ورسم المصحف فهذه روايات غير صحيحة ولا معتبرة وابن عباس برئ منها ، وقد قرأ الآيات على خلاف ما روى عنه .

الرابعة — ورد عن هشام بن عروة عن أبيه قال سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى : « إن هذان لساحران » وعن قوله تعالى : « والمقيمين الصلاة » وعن قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون » فقالت يا بن أختى هذا من عمل الكتاب قد أخطأوا فى الكتابة .

والجواب أن هذه الرواية مهما كان سندها صحيحا فانها مخالفة للمتواتر القاطع فلا يعول عليها على أن بعض هذه الروايات لم يصح عنها .

وخلاصة الدفاع عن كتابة القرآن ورسمه هو أن النصوص قاطعة والأدلة ناصعة على أن جمع القرآن الذى أنزله الله وأمر باثباته هو هذا الذى حواه مصحف عثمان بين الدفتين لم ينقص منه شئ ولم يزد فيه شئ ، بل أن ترتيبه ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أمره ربه لم يقدم ولم يؤخر منه شئ، وقد ضبطت الأمة عنه ترتيب آيه وقراءاته و إذن فأخبار الآحاد لا تعارض الواقع .

(هـ) المصاحف تفصيلا — إعجامها وشكلها :

قلنا فيما سبق أن عثمان رضى الله عنه أمر بكتابة المصاحف وأرسل بها الى الجهات وأمر بتحريق ما عداها وكانت مشتملة على الحروف السبعة أو قاصرة على حرف قريش (حسب ما تقدم تقريره فى معنى الوجوه) ونزيد هنا أن أهل كل مصر كانوا يقرءون بما فى مصحفهم تلقيا من الصحابة الذين تلقوه من فم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأجمعت الأمة على ما فى هذه المصاحف ، وعلى ترك كل ما خالفها ؛ وليس بين أيدينا الآن دليل قاطع على وجود نفس المصاحف العثمانية ، ولا على أماكن وجودها — نعم توجد مصاحف أثرية تحتويها خزائن الكتب ، ودار الآثار فى مصر ، ومنها المصحف المحفوظ فى خزانة الآثار بالمسجد الحسينى وهو منسوب الى عثمان رضى الله عنه ، ومكتوب بالخط الكوفى

القديم مع تجويف حروفه وسعة حجمه — ورسمه يوافق رسم المصحف المدنى أو الشامى فلعله منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها — وبها مصحف أيضا يقال إن على بن أبى طالب هو الذى كتبه بخطه ، وهو أقل فى الحجم من سابقه ، ورسمه يخالف رسم سابقه .

وقد نسخ على غرار المصاحف العثمانية الآلاف المؤلفة فى كل عصر ومصر مع المحافظة على الرسم العثمانى فعدم بقاء المصاحف العثمانية نفسها لا يضر شيئا ما دام المعول عليه هو النقل والتلقى ثقة عن ثقة الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك موجود ومتواتر ومستفيض على أكمل وجه فى القرآن حتى الآن .

وقد أخذت المصاحف العثمانية الموجودة الآن أشكالا مختلفة فكان لذلك أحسن الأثر فى التيسير والتشويق الى القرآن ، وكما تناولتها يد التحسين فى الشكل تناولتها يد التحسين فى الجوهر مما يرجع الى تقريب نطق الحروف عن طريق الإعجام والشكل وغيرهما .

أما الإعجام فهو النقط ولم يكن المصحف العثمانى منقوطا اعتمادا على التلقى والرواية ولتبقى الكلمة محتملة لكل ما يمكن من القراءات المتواترة — وفى عهد عبد الملك بن مروان بدأ اللبس فى قراءة المصاحف فشق على الناس أن يهتدوا الى التمييز بين حروف المصحف وكلماته ، وقد اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب بالعجم فرأى بثاقب نظره أن يعمل شيئا لرفع هذا اللبس ، فأمر الحجاج الثقفى أن يفكر فى الأمر فندب الحجاج رجلين مشهورين بالعلم والعمل خبيرين بأصول اللغة ووجوه القراءة هما نصر بن عاصم الليثى ويحيى بن يعمر العدوانى ، فأعجما المصحف الشريف ونقطا جميع حروفه المتشابهة بصفة رسمية عامة ما لبثت أن صارت ذائعة شائعة بين الناس وارتفع بها الإلباس .

أما الشكل : فيقال له فى اللغة إعجام أيضا ولكن شاع استعماله فى خصوص ما يعرض للحرف من حركة أو سكون ، وقد كان القرآن غير مشكول وكانت ملكتهم وسليقتهم العربية تغنيهم عن ذلك ، ولكن حين اختلط العرب بالأعجام

وخافت العجمة على لغة القرآن أمر زياد (والي البصرة) أبا الأسود الدؤلى أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله ، فأداه اجتهاده الى جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف وعلامة الكسرة نقطة تحت الحرف وعلامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف وعلامة السكون نقطتين ، ثم تدرج الناس فى تمييز شكل الحروف الى أن جاء عبد الملك بن مروان (وهو الذى عمل الإعجام بالنقط على ما تقدم) فاستبدل بالشكل الأول وهو النقط شكلا جديدا هو ما نعرفه اليوم فتمايز الاعجامان ولم يتشابه الأمران .

ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة أنه إذا كان نقط المصحف وشكله يراه بعض علماء الصدر الأول غير مرغوب فيه مبالغة في المحافظة على بقاء القرآن كما رسم عثمان فليكن إعجامه وشكله بعد تغير الزمان واجبا للسبب نفسه وهو المحافظة على أداء القرآن كما رسم عثمان وخوفا من أن يؤدى عدم الإعجام الى التغيير فيه .

أما تجزئة القرآن الى أجزاء فهو من تفنن الناس فى خدمة القرآن فمنهم من قسمه الى ثلاثين قسما وسمى كل قسم جزءا (وقد طبع على هذا الوجه ما يسمى بالربعات) ومنهم من قسمه الى ستين جزءا ومنهم من قسم الحزب الى أربعة أرباع ومنهم من وضع كلمة « خمس » بعد كل خمس آيات وكلمة « عشر» بعد كل عشر آيات ومنهم من يرمز الى رءوس الآى برقم عددها من السورة ومنهم من يكتب عنوان السورة وينوه باسمها وما فيها من الآيات المكية والمدنية الى غير ذلك .

كل ذلك ابتغاء مرضاة الله يرجون ثوابه والله عنده حسن الثواب نسأل الله جلت قدرته أن يوفقنى لخدمة القرآن وأن يرزقنا التوفيق والسداد آمين .

الموضوع الخامس من المنهاج

القراءات والقراء

مباحثه

(ا) معنى القراءات .

(ب) معنى القراء .

(ج) الشبه الواردة فى هذا المقام .

(ا) معنى القراءات :

القراءات جمع قراءة وهى لغة مصدر قرأ ـ واصطلاحا مذهب يذهب اليه إمام من الأئمة مخالفا به غيره فى النطق بالقرآن مع اتفاق الروايات عنه .

والفرق بين الأحرف السبعة والقراءات من جهات ثلاث :

الأولى : أن القراءات مذاهب للأئمة يخالف كل صاحب مذهب منها غيره فى مذهبه ولا يقرأ إلا بمذهبه هو لأنه هـو الذى بلغه وأما الوجوه أو الأحرف فليست على هذه الصفة بل ترجع إلى تخيير القارئ فى القراءة .

الثانية : أن القراءات باقية إجماعا وأما الأوجه ففيها توجيهان حسب معنى الوجه كما تقدم فراجعه فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف .

الثالثة : إن القراءات اختلافات فى اللهجات وكيفية النطق وطرق الأداء فقط من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وأمالة وأشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف وتليين الخ الخ ولا كذلك الأحرف السبعة كما يظهر للمتأمل .

ولنعد الى موضوع القراءات فنقول :

لقد كان المعول عليه فى قراءة القرآن إنما هو التلقى كما كان الاعتماد فى نقل

القرآن على الحفظ ولذلك لما أرسل عثمان المصاحف الى الآفاق أرسل مع كل مصحف من الصحابة من توافق قراءته ما فى المصحف . فقرأ كل أهل مصر بما فى ذلك المصحف وتلقوه عن الصحابى المرافق له ، ولم تكن تلك المصاحف منقوطة ولا مشكولة وكانت صورة الكلمة فيها محتملة لكل ما يمكن من أنواع القراءات المختلفة وقد تكون مكتوبة فى بعض المصاحف بأحد الأنواع وفى البعض الآخر بنوع آخر مثل ما تقدم فى الأحرف السبعة على القول ببقائها فى المصاحف فى جمع عثمان وهذا هو السبب فى اختلاف القراءات مع كونها كلها فى حرف قريش .

وقد اشتهر فى كل طبقة من طبقات الأمة جماعة يحفظون القرآن ويعرفون قراءته ثم اشتهر على رأس المائتين القراءات السبع المنسوبة الى الأئمة السبع وهم نافع وعاصم وحمزة وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو والكسائى .

وقد دون قراءاتهم الإمام ابن مجاهد فى آخر القرن الثالث — وانما اقتصر على هؤلاء السبعة لأنهم اشتهروا عنده بالضبط والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراء دون سواهم — وليس اقتصاره عليهم حاصرا للقراء فيهم لأن أئمة القراءة لا يحصون عدا وفيهم من هو أجل من هؤلاء — هذا ولعلماء القراءات ضابط مشهور يعرف به القراءة المقبولة وقد نظمه صاحب الطيبة بقوله :

وكل ما وافق وجه النحو ... وكان للرسم احتمالا يحوى
وصح إسنادا هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت ... شذوذه لو انه فى السبعة

وهذا الضابط ينتظم أركانا ثلاثة :

الأول — إن توافق القراءة أحد المصاحف القرآنية ولو تقديرا .
الثانى — أن توافق القراءة العربية ولو بوجه .
الثالث — أن تصح إسنادا .

فكل قراءة اجتمع فيها هذه الأركان الثلاثة يحكم بقبولها ويكفر من جحدها متى توافرت الدواعى على العلم بها فتكون معلومة من الدين بالضرورة وسواء

أكانت تلك القراءة من السبعة أو العشرة أو غيرهم من الأئمة المقبولين وكل قراءة لم تتوافر فيها هذه الأركان الثلاثة يحكم بعدم قبولها وبعدم كفر جاحدها سواء أكانت مروية عن السبعة أو غيرهم — ولا يشترط التواتر لأنه إذا ثبت لا يحتاج الى الركنين الآخرين — وإذا اشترطناه فى كل حرف من حروف القراءات التى وقع فيها الخلاف انتفى كثير من حروف الخلاف الثابتة .

أما بعد فان القراءات من حيث السند تتنوع الى أنواع ستة :

الأول — المتواتر وهو الغالب فى القراءات وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم .

الثانى — المشهور وهو ما صح سنده ووافق العربية وأحد المصاحف واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ إلا أنه لم يبلغ مبلغ التواتر وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما مع وجوب اعتقادهما .

الثالث — الآحاد — وهو ما صح سنده وخالف الرسم والعربية أو لم يشتهر.

الرابع — الشاذ — وهو ما لم يصح سنده .

الخامس — الموضوع — وهو ما نسب الى قائله من غير أصل .

السادس — مايشبه المدرج — وهو ما زيد فى المصاحف على وجه التفسير.

وهذه الأنواع الأربعة لا يقرأ بها ولا يجب اعتقادها .

ملاحظة (١) — فائدة اختلاف القراءات وتنوعها مع السلامة من التناقض أمور منها — الجمع بين حكمين مختلفين كقراءة يطهرن بالتخفيف والتشديد — ومنها الدلالة على حكمين شرعيين مختلفين مع الاختصار كقراءة وأرجلكم بالخفض والنصب لبيان حكمى المسح والغسل عند مقتضى كل — ومنها — الإعجاز مع الإيجاز فان كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية .

ملاحظة (٢) ليست القراءات السبع هى الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن لأن جميعها فى حرف واحد هو حرف قريش كما تقدم — والذى أوقع الناس فى هذا

الوهم تحديد القراءات بالسبع وهو ما فعله ابن مجاهد من غير أن يقصد هذا الإيهام ولذا قيل ليته نقص عن السبعة أو زاد عليها لتزول الشبهة .

ب — القراء :

القراة جمع قارىء وهو الامام الذى تنسب اليه القراءة وقد اشتهر منهم سبعة وهم الذين عناهم ابن مجاهد لما اشتهروا به عنده من الضبط والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراء واتفاق الآراء على الأخذ عنهم — وهم .

(١) ابن عامر وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان

(٢) ابن كثير « « « « البزى وقنبل

(٣) عاصم « « « « شعبة وحفص

(٤) أبو عمرو « « « « الدورى والسوسى

(٥) حمزة « « « « خلف وجلاد

(٦) نافع « « « « قالون وورش

(٧) الكسائى « « « « أبو الحارث والدورى

جـ — الشبه التى أثيرت فى هذا المقام

قال الملحدون — أن المعلوم بالتواتر هو كون أحدى القراءتين من القرآن — أما هما معا أوأحداهما بعينها فلا كيف والذين تستند اليهم هذه القراءات لم يحصل التواتر بقولهم فيما اتفقوا عليه فضلا عما اختلفوا فيه .

والجواب : أن قراءة كل واحد منهم قد علمت من جهته ومن جهة غيره ممن يبلغ عددهم التواتر وإنما نسبت القراءات اليهم لأن كل واحد منهم اختار القراءة بوجه آثره على غيره ولزمه حتى اشتهر به وأخذ عنه فأضيف اليه .

وقالوا : إن القول بتواتر القراءات يؤدى إلى تكفير من طعن فى شيء منها مع أنه قد وقع الطعن من بعض العلماء فى بعض القراءات ولم يحكم بكفره .

والجواب : إنا لانسلم أن إنكار شيء من القراءات المتواترة يقتضى التكفير على اطلاقه بل أن محله عند العلم بالتواتر حيث يصير معلوما من الدين بالضرورة فيكفر جاحده وأما قبل ذلك فلا ـ والشيء قد يكون متواترا عند قوم وغير متواتر عند آخرين وقد يكون متواترا فى زمن دون آخر ـ على أن طعن الطاعنين انما هو فيما اختلف فيه وكان من قبيل الأداء ـ أما ما اتفق عليه فليس بموضع طعن ـ ونحن لانقول بالتواتر الا فيما اتفق عليه دون ما اختلف فيه والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب .

الموضوع السادس من المنهاج

التفسير والمفسرون

مباحثه

(ا) التفسير والفرق بينه وبين التأويل ـ الحاجة إليه ـ أقسامه .

(ب) التفسير بالمأثور ـ المفسرون به من الصحابة والتابعين ـ تدوينه .

(ج) التفسير بالرأى ـ المقبول منه والمردود ـ أشهر المؤلفين فيه .

(د) تفسير الفرق المختلفة حكمه أشهر المؤلفين فيه .

(ه) مزج العلوم الأدبية والكونية وغيرها بالتفسير وسبب ذلك وأثره .

(ا) التفسير والفرق بينه وبين التأويل ـ الحاجة إليه ـ أقسامه :

التفسير الإيضاح والتبيين قال تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » الفرقان ـ واصطلاحا علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

والتأويل لغة مرادف للتفسير فى أشهر معانيه اللغوية ـ وأما فى الاصطلاح فعند المتقدمين مرادف للتفسير وقيل أخص من التفسير فهو بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه والتفسير بيان مدلول اللفظ مطلقاً ـ وقيل هو مباين للتفسير فهو ترجيح أحد المحتملات بدون قطع والتفسير هو القطع بالمراد والحق ما ذهب إليه المتأخرون وتعورف عند المؤلفين من غير نكير وهو أن بينهما التباين من جهة أن التأويل بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة وأن التفسير بيان المعانى التى تستفاد من وضع العبارة ـ قال الإمام الآلوسى (التأويل معان قدسية ومعارف ربانية تنزل من سحب الغيب على قلوب العارفين وأما التفسير فغير ذلك) ـ ونحن إذ عرفنا التفسير بالعبارة السابقة العامة أردنا شموله التأويل .

والحاجة إلى التفسير شديدة ـ فإن نهضة الشعوب والأمم والأفراد لا تكون إلا عن طريق الإسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التى روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشرى على ما أحاط به علم خالقه الحكيم ـ ولا يمكن الانتفاع بهذه التعاليم إلا بعد فهم القرآن وتدبر معانيه والإلمام بمبادئه ـ والتفسير هو مفتاح هذه الكنوز التى احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر وإنقاذ الناس وإعزاز العالم ففائدة التفسير جليلة إذ تتلخص فى التذكير والاعتبار والهداية والإرشاد ليفوز الناس بخيرى العاجلة والآجلة ـ فهو من أشرف العلوم إن لم يكن أشرفها . وذلك لسمو موضوعه وعظيم فائدته .

والتفسير ثلاثة أقسام : (١) تفسير بالرواية ويسمى التفسير بالمأثور . (٢) وتفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأى . (٣) وتفسير بالإشارة ويسمى التفسير الأشاوى وإليك الحديث عن هذه الأقسام الثلاثة بالتفصيل :

(ب) التفسير بالمأثور ـ المفسرون به من الصحابة والتابعين ـ تدوينه :

التفسير بالمأثور ـ بيان معنى القرآن الكريم بما جاء فى القرآن أو السنة أو كلام الصحابة فالأول مثل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » فإن كلمة من الفجر بيان وشرح للمراد من كلمة الخيط الأبيض ـ سورة البقرة ومثل قوله تعالى « وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب » فإن كلمة النجم الثاقب بيان لكلمة الطارق قبلها ـ سورة الطارق ، وغير ذلك فى القرآن كثير ، وأما الثانى فمثل ما جاء فى السنة من تفسير الظلم بالشرك فى قوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » الأنعام ، وذلك فى السنة كثير ، والثالث مثل ما صح وروده عن الصحابة رضى الله عنهم أجمعين من تفسير القرآن الكريم لأنهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل وعاينوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن معانى الكتاب ، ولهم من سلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم وعلو كعبهم فى الفصاحة والبيان ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله ، ولذلك أطلق بعضهم القول بأن تفسير الصحابى الذى شاهد

الوحى له حكم المرفوع ـ وأما ما ينقل عن التابعين فبعض العلماء يعتبره من المأثور وبعضهم يعتبره من التفسير بالرأى .

وقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة ـ الخلفاء الراشدون أربعة وابن عباس وابن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله ابن الزبير ـ فأما أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فالرواية عنهم قليلة لتقدم وفاتهم واشتغالهم بالسياسة ـ وأما على كرم الله وجهه فقد عاش بعدهم حتى اشتدت حاجة الناس فى زمانه إلى من يفسر لهم القرآن الكريم فكان ما نقل عنه أكثر مما نقل عمن قبله من الخلفاء ـ وقد امتاز بخصوبة الفكر وغزارة العلم وإشراق القلب وكان لصلته الوثيقة برسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته منه وصهارته له أثر عظيم فى استنارة نفسه وغزارة مادته وسعة علمه وتبريزه فى الحكمة والقضاء حتى ضرب بفقهه المثل فقيل (قضية ولا أبا حسن لها) وحتى قال ابن عباس (ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب) .

وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد دعا له بقوله (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) وكان عمر إذا سئل فى القرآن يقول اذهبوا إلى ابن عباس وهو أكثر الصحابة تفسيراً لانقطاعه وتفرغه للنشر والدعوة والتعلم دون أن تشغله خلافة أو سياسة ـ غير أن الرواية عنه مختلفة الدرجات فمنها الجيد ومنها الواهى .

وأما ابن مسعود فقد كان من أعلام الصحابة ومن أعلمهم بكتاب الله ومعرفة محكمه ومتشابهه وقد قال على كرم الله وجهه وقد سئل عن ابن مسعود (علم القرآن والسنة ثم انتهى وكفى بذلك علما) وقد كان خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان له من هذه الصلة القوية خير مثقف ومؤدب وقد ورد عنه أنه قال (والله الذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته) .

وأما أبى بن كعب فكان من أعلام القراء ومن كتاب الوحى وممن شهدوا بدراً وقد ورد فيه (وأقرأهم لكتاب الله عز وجل أبى بن كعب) .

وهؤلاء الاربعة (على وابن عباس وابن مسعود وأبى بن كعب) هم المكثرون فى التفسير .

وأما باقى العشرة وهم : زيد بن ثابت وأبو موسى الاشعرى وعبد الله بن الزبير فمع شهرتهم فى التفسير كانوا أقل من الاربعة قبلهم .

وقد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء العشرة شىء من التفسير لكنه قليل منهم أنس بن مالك وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم أجمعين .

وأما المفسرون من التابعين فهم طبقات ثلاث :

(١) طبقة أهل مكة .

(٢) طبقة أهل المدينة .

(٣) طبقة أهل العراق .

فأما طبقة أهل مكة فقد كانت أعلم الناس بالتفسير لانهم أصحاب ابن عباس وهم (مجاهد وعطاء بن أبى رباح وعكرمة وسعيد بن جبير وطاووس) وكلهم ثقات فى الرواية عن ابن عباس ـ قال الإمام النووى (إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به) وقد روى عن مجاهد أنه قال (عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة) وقال الإمام الشافعى (ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة) .

وأما طبقة أهل المدينة فمنهم (زيد بن أسلم وأبو العالية ومحمد بن كعب) وكلهم ثقات حجة .

وأما طبقة أهل العراق فمنهم (مسروق وقتادة والحسن البصرى وعطاء ابن أبى مسلم الخراسانى) .

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين الذين استمدوا آراءهم وتفاسيرهم من الصحابة ومنهم أخذ تابعوا التابعين وهكذا حتى وصل إلينا دين الله وكتابه وعلومه ومعارفه سليمة كاملة نقية عن طريق التلقى جيلا عن جيل — وقد يلاحظ فى الرواية عن التابعين أنهم لم يشاهدوا الوحى ولم يشرفوا بعهد النبوة ولم يشافهوا الرسول فيكون ما روى عنهم من تفسير القرآن من قبيل الرأى

فليس له قـــوة المرفوع وقـد ندر فيه الإسناد الصحيح بل قد يشتمل على بعض الإسرائيليات .

على أن التفسير بالمـأثور مطلقاً ليس كله ثقة فقد عرفنا أنه يتناول ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف من كلام الصحابة .

فأما القسمان الأولان فلا خلاف فى قبولهما وأما الثالث فانه يتطرق إليه الشك والضعف لاختلاط الصحيح بغيره ونقل كثير من الأقوال المعزوة إلى الصابة والتابعين من غير إسناد ولا تحر — فلا يستبعد أن يوجد فيها كثير من الأقوال التى دسها أعداء الإسلام فى التفسير والتى لفقها أصحاب المذاهب المتطرفة ترويجاً لمذهبهم والتى أثبتها المتزلفون للعباسيين تملقاً لهم ونسبوها إلى ابن عباس ظلماً وهو منها براء ، كما يوجد فى التفسير بالمـأثور كثير من الإسرائيليات والخرافات التى يقوم الدليل على بطلانها ، وجملة القول أن التفسير بالمـأثور نوعان أحدهما ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله وهذا يجب قبوله . وثانيهما ما لم يصح لسبب من الاسباب الآنفة الذكر أو غيرها وهذا يجب رده . ولعل الذين أطلقوا القول فى رد المـأثور إنمـا أرادوا المبالغة وعذرهم أن الصحيح منه قليل نادر حتى لقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه (لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمـائة حديث) .

وأما التدوين للتفسير بالمأثور - فقد قدمنا لك فى أول المذكرة عند الكلام على تاريخ التدوين لعلوم القرآن أن أول عهد التدوين لهـا بالمعنى الاضافى كان فى القرن الثانى وأن الهمم اتجهت أولا إلى تدوين علم التفسير لأهميته - وقد ألفت له فى هذا العهد تفاسير كثيرة جمعت أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان ابن عيينة وتفسير وكيع بن الجراح وتفسير شعبة بن الحجاج وغيرهم ، وفى القرن الرابع ألف ابن جرير الطبرى كتابه المشهور وهو من أجل التفـاسير بالمـأثور ثم تلاه تفسير ابن ماجة وتفسير الحاكم وتفسير ابن حبان وغيرهم وليس فى تفاسيرهم

إلا ما هو مسند إلى الصحابة أو التابعين أو تابعهم ما عدا ابن جرير فانه تعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض وذكر الاعراب والاستنباط .

ومن أشهر كتب التفسير بالمأثور عدا تفسير ابن جرير كتاب الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام السيوطى ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير البغوى ، وأسباب النزول للواحدى . ثم جاء قوم صنفوا فى التفسير بالمأثور واختصروا الأسانيد ولم ينسبوا الأقوال لقائليها فالتبس بذلك الصحيح بغيره وصار الناظر فى هذه الكتب يظنها كلها صحيحة بينما هى مفعمة بالقصص والاسرائيليات ومن هنا استهدفت رواياتهم للتجريح والطعن — ولولا ما يقوم به المحققون فى كل عصر من التنقيب عن الحق ودحض الباطل لا نطمست المعالم واختلط الحابل بالنابل ، والله يقينا شر الأهواء .

(ج) التفسير بالرأى - المقبول منه والمردود - أشهر المؤلفين فيه :

المراد بالرأى هنا الاجتهاد - وقد اختلف العلماء فى جواز التفسير بالرأى فبين مجيز ومانع - فأما المانعون فيستدلون (١) بأنه قول على الله بغير علم وهو منهى عنه (٢) وبما روى الترمذى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار (٣) وبما رواه أبو داود عن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ (٤) وبما ورد عن الصحابة والتابعين من أنهم كانوا يتحرجون من القول فى القرآن بآرائهم فقد روى عن الصديق أنه قال « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى القرآن برأيى أو بما لا أعلم » .

وأما المجيزون فقد استدلوا (١) بأن الله تعالى يقول (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ويقول (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب) (٢) وبأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قال فى دعائه لابن عباس (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) وبأنه لو كان التفسير بالرأى

غير جائز لانطمست معالم الشريعة وتعطل كثير من الأحكام لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر القرآن كله .

ويمكن الجمع بين الرأيين حيث يكون الخلاف لفظياً فيحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى على التفسير المستوفى للشروط الآتية ويحمل كلام المانعين على ما فقدت فيه شروط الجواز أو بعضها .

والحاصل أن التفسير بالرأى إن كان الاجتهاد فيه موفقا أى مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة فالتفسير محمود وإلا فمذموم .

والأمور التى يجب استناد الرأى إليها فى التفسير بالرأى أربعة .

الأول — الاعتماد على ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يفسر السبيل أمام المفسر برأيه .

الثانى — الأخذ بأقوال الصحابة فيما لا مجال للرأى فيه كأسباب النزول ونحـــوها .

الثالث — أن يكون المفسر عارفا بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها .

الرابع — أن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى ينزل كلام الله على المعروف من شريعته .

وقد بين العلمـاء أنواع العلوم التى يجب توافرها فى المفسر بالرأى فقالوا هى (اللغة - النحو - الصرف - علوم البـــلاغة - أصول الفقه - التوحيد - أسباب النزول — القصص — التاريخ — الناسخ والمنسوخ — الأحاديث المبينة للمجمل والمتشابه — علم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم) .

وكل هذه الشروط إنما هى لتحقيق أعلى مراتب التفسير — أما المعانى العامة التى يستشعر فيها المرء عظمة مولاه والتى يفهمها كل إنسان عند إطلاق اللفظ الكريم فهى قدر مشترك بين عامة الناس وهى مدار التذكير والاعتبار - وذلك أدنى مراتب التفسير .

هذا — وليعلم أن التفسير المأثور الثابت بالنص القطعي لا يمكن مطلقا أن يتعارض مع التفسير بالرأى ، لأن الرأى إما قطعى أو ظنى — فإن كان قطعيا أول المأثور حتى يتلاقى مع الرأى القطعى المستند إلى النقل أو العقل — فإن لم يمكن تأويل المأثور حمل اللفظ الكريم على ما يقتضيه الرأى القطعى تقديما للأرجح - أما إن كان الرأى ظنيا فإن المأثور القطعى يقدم عليه - وأما المأثور غير القطعى فإن كان ما حصل فيه التعارض مما لا مجال للرأى فيه فالمعول عليه المأثور ، وإلا جمع بينهما إن أمكن وإلا قدم المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة وأما المأثور عن التابعين فإن كان منقولا عن أهل الكتاب قدم عليه التفسير بالرأى وإلا رجعنا به إلى السمع إن وجد وإلا نزل النظم الكريم منزلة المجمل قبل تفصيله والمبهم قبل بيانه .

أما بعد فإن أشهر المفسرين بالرأى المحمود هم .

أولا — الإمامان الجليلان الجلالان (المحلى والسيوطى) صاحبا التفسير المسمى : (تفسير الجلالين) .

ثانيا — الإمام البيضاوى صاحب التفسير المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) .

ثالثاً — الإمام فخر الدين الرازى صاحب التفسير المسمى (مفاتيح الغيب)

رابعاً — سلطان المفسرين أبو السعود صاحب التفسير المسمى : (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) .

خامساً — العلامة الألوسى صاحب التفسير المسمى : (روح المعانى) .

سادساً — النيسابورى — صاحب التفسير المسمى : (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) .

سابعاً — الخطيب — صاحب التفسير المسمى : (السراج المنير والإعانة على معرفة كلام ربنا الخبير) .

ثامناً — النسفى — صاحب التفسير المسمى : (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) .

تاسعاً — علاء الدين البغدادى صاحب التفسير المسمى : (تفسير الخازن) .

(د) تفسير الفرق المختلفة — حكمه — أشهر المؤلفين فيه :

تناولت كل طائفة كتاب الله تفسره بما ارتضته نفسها ، فظهرت مجموعة من التفاسير تنطبع فيها صور المفسرين لها على اختلاف مشاربهم وتباين منازعهم — فنجد تفاسير أهل السنة تظهر فيها عقيدة أهل السنة — وتفاسير المعتزلة تظهر فيها عقيدة الاعتزال وتفاسير الشيعة تظهر فيها عقيدة التشيع وهكذا — وقد تكلمنا على نماذج من تفاسير أهل السنة — والآن نتكلم على نماذج أخرى من تفاسير الفرق المختلفة ونجملها فى نوعين (١) التفسير الإشارى . (٢) تفاسير أهل الكلام .

أولا : التفسير الإشارى ويسمى تفسير الصوفية ، وهو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف مع إمكان الجمع بينها وبين الظاهر وهذا هو الفرق بين التفسير الإشارى وتفسير الباطنية الملاحدة — فإن الصوفية أصحاب التفسير الإشارى لا يمنعون إرادة الظاهر بل يحضون عليه ويقولون لا بد منه أولا . وأما الباطنية فإنهم يقولون أن الظاهر غير مراد أصلا وإنما المراد الباطن وقصدهم بذلك نفى الشريعة ، قال الإمام النسفى فى عقائده : « النصوص على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد . اهـ »

وقد اختلف العلماء فى التفسير الإشارى « بعد اتفاقهم على منع تفسير الباطنية » فمنهم من أجازه ومنهم من منعه . فمن المجوزين الإمام التفتازانى فقد قال فى شرح العقائد النسفية شرحا لعبارة الإمام النسفى المتقدمة « سميت الباطنية ملاحدة لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معان لا يعرفها إلا المعلم » وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية .

ثم قال وأما ما ذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان - وللإمام السيوطى كلام كهذا نقلا عن ابن عطاء فى لطائف المنن - ومن المانعين الإمام الزركشى فى البرهان حيث قال (كلام الصوفية فى تفسير القرآن ليس بتفسير وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » إن المراد النفس يريدون أن غلة الأمر بقتال من يلينا هى الفرب وأقرب شىء إلى الإنسان نفسه) - ومنهم ابن الصلاح فى فتاويه حيث قال وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسر أنه قال (صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير فان كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر) قال ابن الصلاح تعليقاً على ذلك (وأنا أقول الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيراً) .

ويمكن الجمع بين الرأيين : كما جمع بين الرأيين فى التفسير بالرأى فيقال - المقبول من التفسير الإشارى ما اجتمع فيه شروط ثلاثة (١) أن لا يتنافى مع ما يظهر من معنى النظم الكريم فلا يكون تأويلا بعيداً سخيفاً (٢) أن لا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر (٣) أن يكون له شاهد من الشرع يؤيده فلا يتعارض مع الشرع ولا مع العقل - والممنوع ما فقد فيه الشروط أو بعضها - ويحسن فى المقبول أن يبين أولا المعنى المراد من النظم ثم يتلوه المعنى الإشارى .

ولنا رأى فى الموضوع نقتدى فيه بالإمام الغزالى وهو يقضى بعدم التعويل على هذه التفسيرات لأنها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط وكثيراً ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة ولا تخلو من الدس والوضع فالبعد عنها بعد بالنفس عن المزالق واستبراء للدين — وفى التفاسير المأمونة التى ظاهرت قوانين الشريعة واللغة مندوحة عن هذه الشبهات .

هذا وأهم كتب التفسير الإشارى أربعة (١) تفسير النيسابورى (٢) تفسير الآلوسى

(٣) تفسير التسترى . (٤) تفسير ابن العربى - فأما الاولان فانه يذكر فيهما المعنى المراد ثم يليه التفسير الاشارى معنونا بكلمة (قال أهـــل الاشارة) أو (ومن مقام الإشارة) .

وأما الأخيران فقد سلسكا مسلك الصوفية مع الموافقة لأهل الظاهر فارجع إلى هذه التفاسير إن شئت تزدد بصيرة وعلما .

ثانياً : تفسير أهـل الـكلام : أهل الـكلام فرق تناولت كل فرقة كتاب الله بالتفسير حسب ما ارتضته لنفسها فالسنى لاحت على تفسيره أنوار أهل السنة والمعتزلى ظهرت فى تفسيره عقيدة الاعتزال والشيعى بدت فى تفسيره ظواهر التشيع وهم مع هـذا مختلفون فى التعصب لمذاهبهم والقصد فيه - فمن أهل السنة من هو قاصد فى تأييد عقيدته فى تفسيره كهؤلاء الذين ترجمنا عنهم فيما سبق عند الـكلام على أشهر كتب التفسير بالرأى المحمود - ومنهم من استبسل فى الدفاع عن عقيدة السنيين وعلى رأسهم الامام فخر الدين الرازى الذى شنها حربا شعواء عند كل مناسبة على أهل الزيغ والانحراف فى العقيدة وصاغ الأدلة المهذبة لتدعيم مذهب أهل السنة وتعرض لشبه المخالفين ونقضها .

وإليك الآن طرفا من تفاسير أهل الـكلام غير السنيين ومذاهبهم فيها :

١ — تفاسير المعتزلة : وأشهرها تفسير الـكشاف للزمخشرى وهو معتزلى متعصب يدعو إلى عقيدة الاعتزال دائماً وكتابه من خير الـكتب رغم نزعته الاعتزالية فإن غالب التفاسير بعده أخذت منه واعتمدت عليه وهو كتاب خال من الحشو والتطويل سليم من القصص والاسرائيليات معتمد على لغة العرب دائماً معنى بعلوم البلاغة وتحقيق وجوه الاعجاز - ويمتاز بأسلوبه الخاص وهو سلوك طريق السؤال والجواب .

٢ — تفاسير الباطنية : وقد قلنا فيما سبق أن الباطنية قوم رفضوا الأخذ بظواهر الـكتاب الـكريم وقالوا أن للقرآن ظهرا وبطنا والظاهر غير مراد وإنما المراد الباطن ، ومن أمثلة ذلك قولهم فى قوله تعالى (وورث سليمان داود) أنه الإمام على ورث النبى فى علمه وقالوا الجنابة مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه

قبل أن ينال رتبة الإستحقاق ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك الخ هذه الخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان .

والباطنية طوائف فمنهم القرامطة ومنهم الإسماعيلية ومنهم السبعية ومنهم الخرمية الخ الخ وقد قلنا فيما تقدم أن تفاسيرهم إلحاد وكفر لأنها تؤدى إلى نقض الشريعة والخروج من الإسلام .

٣ — تفاسير الشيعة : وهى طائفة كبيرة بالغت فى حبها للإمام على كرم الله وجهه وهم فرق فمنهم من أغرق فى التشيع نفسه حتى كفر وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن سبأ اليهودى — ومنهم معتدلون لم يسقطوا فى هاوية الكفران وأن خالفوا أهل السنة والجماعة .

ومن أشهر الكتب المؤلفة فى تفسير الشيعة كتاب (مرآة الانوار ومشكاة الاسرار للكازلونى) من النجف وهو كتاب يشتمل على تأويلات تشبه تأويلات الباطنية السابقة فهم فى ضلالهم كالباطنية والبهائية .

(ه) مزج العلوم الأدبية والكونية وغيرها بالتفسير وأثر ذلك :

القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد وإعجاز ، وهو لا يزال ينشر نور هدايته ويرفع لواء إعجازه ، وقد كان المفسرون الأولون يفهمون هداية القرآن وإعجازه ويصورونها فى تفاسيرهم بسهولة لجريان ذلك على الفطرة السليمة منهم ، ولكن لما فسدت اللغة العربية بسبب كثرة الفتوحات الاسلامية واختلاط العرب بغيرهم أصبحت الحاجة ماسة إلى تأليف العلوم الأدبية (علوم اللغة العربية) لضبط اللغة وعصمة الناس من الخطأ فى فهم كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم — كما دعت الحاجة إلى ترجمة علوم الأمم التى دخلت فى الإسلام للتوفيق بينها وبين القرآن من ناحية ، ولفهم القرآن الكريم على ضوئها من ناحية أخرى حيث يتجاوب العلم والدين ولا يتعارضان .

لهذه الأسباب بدأت العلوم العربية والكونية تتدخل فى تفسير القرآن الكريم وتمتزج به على اعتبار أن هدايته وإعجازه لا يفهمان على الوجه الصحيح كاملا إلا عن طريق هذه العلوم فكان على المفسر أن يساير أفكار الناس ويشرح

ألفاظ القرآن بالطرق العلمية المألوفة لهم ، وبالأفكار الملائمة لأذواقهم ، حيث لا تتنافى مع الدين بل تتجاوب معه ، واصبح امتزاج هذه العلوم بالتفسير أمراً ضرورياً — لذلك احتلت هذه العلوم مكانها فى كتب التفسير وإن اختلف الامتزاج ضعفاً وقوة وقلة وكثرة حسب اختلاف مذاهب المفسرين وتقدم الزمان وتأخره بهذه العلوم — فتجد تفاسير الزجاج وأبى حيان مليئة بالمباحث النحوية ، بينما تجد تفاسير الزمخشرى وأبى السعود مليئة بالمباحث البلاغية ، وتفسير الخازن ملىء بالأخبار والقصص ، وتفسير الجواهر ملىء بالعلوم الكونية وهكذا .

وكان من آثار هذا الامتزاج أن ساعدت العلوم الأدبية على فهم معانى القرآن الكريم وهدايته وإعجازه — وساعدت العلوم الكونية على مسايرة أفكار الناس وإدراك وجوه جديدة للإعجاز ودفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين - كما كانت العلوم الكونية سبباً فى استمالة غير المسلمين إلى الاسلام من هذا الطريق العلمى ، وفوق هذا فإن هذه العلوم تملأ النفس إيمانا بعظمة الله وقدرته وتبين دقائق المخلوقات وتحقق الانتفاع بالكون ومواهبه .

أما بعد فإن مزج هذه العلوم على اختلاف أنواعها من أدبية وكونية وغيرها يجب أن يكون بقدر حتى لا تطغى هذه المباحث على المقصود الأول من تفسير القرآن وهو بيان هدايته وإعجازه والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله - والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات اللهم اهدنا صراطك المستقيم ووفقنا لفهم كتابك الكريم — اللهم اجعله لنا نورا وهدى ورحمة (اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل إسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى) آمين آمين آمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين - وكان الفراغ من هذه المذكرة فى اليوم الثالث عشر من شهر جمادى الثانى عام ألف وثلاثمائة وثمان وستين من هجرة خاتم المرسلين ؟

احمد احمد على

الأستاذ بكلية أصول الدين

الفهرس

صفحة	الموضوع
٣	مقدمة الكتاب
٤	مقدمة الطبعة الثالثة
٥	منهاج السنة الأولى
٦	تمهيد : التعريف بالقرآن الكريم
٨	الموضوع الأول - معنى علوم القرآن وتاريخ ظهور هذا الاصلاح
٨	معنى علوم القرآن بالمعنى الاضافى
١١	» » » العلمى
١١	تاريخ التدوين له بالمعنى الأول
١٤	» » » الثانى
١٧	الموضوع الثانى من المنهاج - نزول القرآن
١٧	(ا) معنى نزول القرآن
١٨	(ب) تنزلات القرآن
١٨	الوجود الأول
١٩	الوجود الثانى
١٩	الوجود الثالث
٢١	تعريف القرآن الكريم
٢٣	تنجيم القرآن وحكمته
٢٤	الحكمة الأولى - مظاهرها
٢٦	الحكمة الثانية - مظاهرها
٢٧	الحكمة الثالثة - مظاهرها
٢٨	الحكمة الرابعة
٢٩	أول ما نزل وآخر ما نزل
٣٢	أسباب النزول
٣٩	نزول القرآن على سبعة أحرف
٤٩	المكى والمدنى والفرق بينهما
٥٢	ملحق الموضوع
٥٣	الكلام على الوحى
٥٥	الشبه الواردة على الوحى
٥٧	الشبه الواردة على نزوله على سبعة أحرف
٥٨	الشبه الواردة على المكى والمدنى
٦٢	الموضوع الثالث من المنهاج جمع القرآن الكريم
٦٢	جمع القرآن بمعنى حفظه
٦٤	جمع القرآن بمعنى كتابته
٦٤	الجمع الأول فى عهد الرسول
٦٦	الجمع الثانى فى عهد أبى بكر
٦٨	الجمع الثالث فى عهد عثمان
٧٣	جدول مقارنة الجمع فى عهوده
٧٤	الشبه الوارة على جمع القرآن وردها
٨٠	الموضوع الرابع من المنهاج ترتيب القرآن وكتابته
٨٠	معنى الآية وطرق معرفتها

صفحة	الموضوع
٨٢	معنى السورة وطريق معرفتها
٨٤	كتابة القرآن ورسم المصحف
٨٧	الشبه الواردة على ترتيب القرآن وكتابته ورسم المصحف
٨٩	المصاحف تفصيلا
٩٠	الاعجام والشكل
٩٢	الموضوع الخامس من المنهاج القراءات والقراء
٩٢	القراءات
٩٥	القراء
٩٥	الشبه التى أثيرت فى هذا المقام
٩٧	الموضوع السادس من المنهاج التفسير والمفسرون
٩٧	التفسير والفرق بينه وبين التأويل
٩٨	التفسير بالمأثور
١٠٢	التفسير بالرأى
١٠٥	تفسير الفرق المختلفة
١٠٥	التفسير الاشارى
١٠٧	تفاسير أهل الكلام
١٠٧	تفاسير المعتزلة
١٠٧	تفاسير الباطنية
١٠٨	تفاسير الشيعة
١٠٨	مزج العلوم الأدبية والكونية وغيرها بالتفسير
١١٠	الفهرست
١١٢	الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤	٦	إعارة	إعادة
٦	١٧	تشيع	تشبع
١٠	١٥	وان	وأن
١٢	٨	ويبشر	وينشر
١٨	٥	علوه	وعلوه
١٨	١٦	الرجود	الوجود
١٩	١٣	بواساطة	بوساطة
١٩	٢١	الأعلام بوساطة	الاعلام بهبوساطة
٢٥	٧	تجـد	تجدد
٢٦	١٥	العادات	العبادات
٢٦	١٩	أهون	أعون
٢٦	٢٥	ليستخلفهم	ليستخفهم
٢٧	١٩	الآية	الآيات
٢٧	٢١	الآية	الايات
٢٨	١٩	السورة	سوره
٣١	١	الودى	الوادى
٣٤	١	نجعلها	نجملها
٣٧	١٢	أذلة الفريقين	أذلة الجمهور
٣٨	٩	الصورة	لمعرفة
٣٩	٨	أقرنى	أقرانى
٤٠	٩	بكل ردتكها	بكل ردة ردتكها
٥١	١٧	وصهفا	وصفها
٥٤	١٧	تعبعثة	تعبئة
٥٥	٢٠	خصائصى	خصائص
٦٥	٦	إلى	إلا
٦٥	٦	ما استذكره	ما ستذكره
٦٦	١٨	بكتب	يكتب
٦٩	١١	فيخلفون	فيخلفون
٨٢	١٥	لينة	لبنة
٨٢	١٦	ولرقعه	والرفعة
٨٣	١٠	البسملة	بالبسملة
٨٧	٧	ترتيب شبهتان	ترتيب القرآن شبهتان